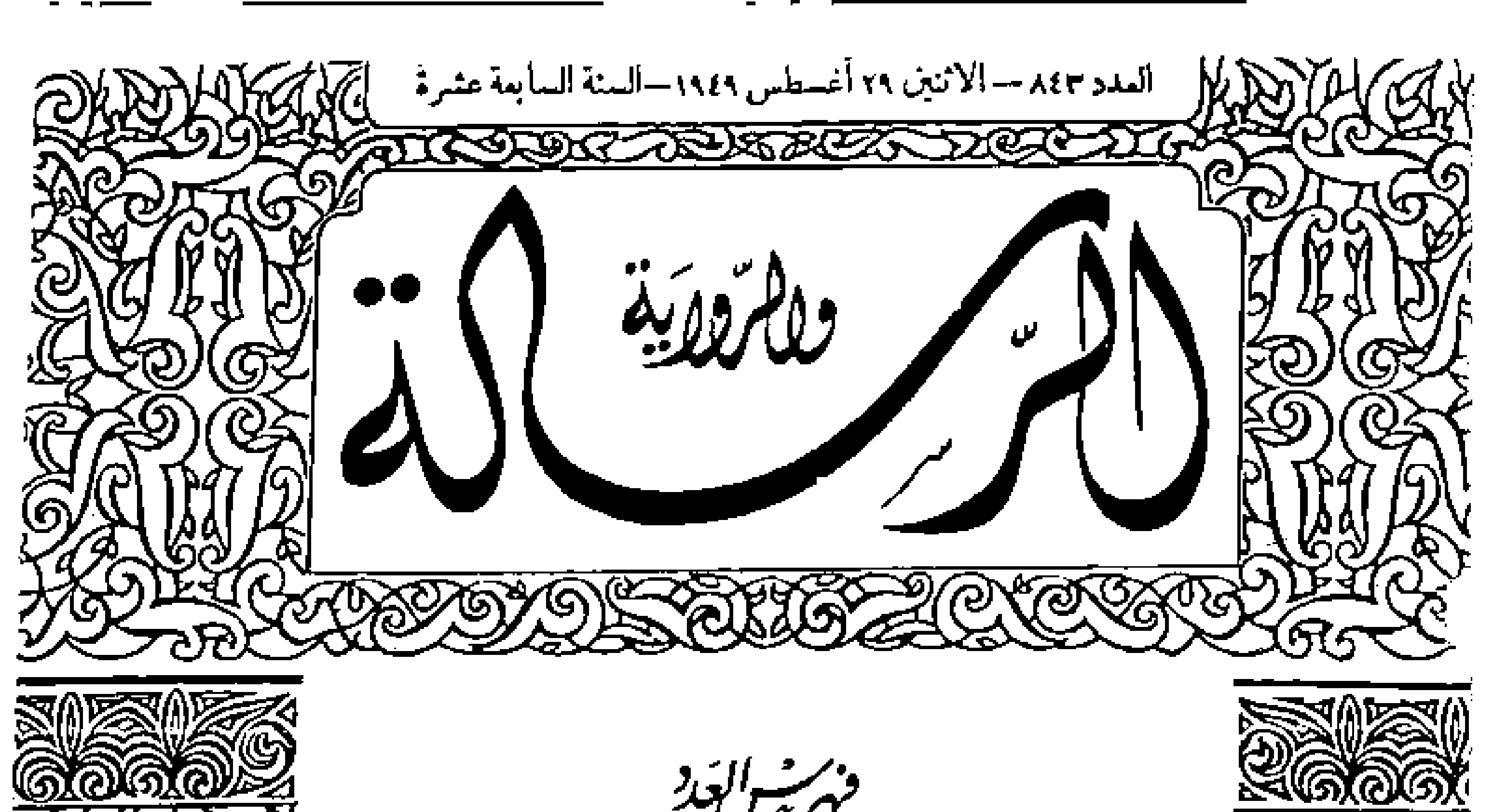
العدد ٨٤٣ — الاثنين ٢٩ أغسطس ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة



فهرس العدد

٢٣٠ • ١٧

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

17e Année No. 848 — Lundi — 29 — 8 — 1949



العـــدد ٨٤٣ «القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٨ — ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٩» السنة السابعة عشرة

كانتا أمتين ..!

فى عيد الباكستان (*)

لحضرة صاحب المعالى إبرهيم دسوقى أباظه باشا

كانتا أمتين انبثقت إحداهما عن الأخرى، ثم حثت الأولى خطاها إلى مستقر الخلود، وظلت الأخرى وستظل تصعد فى مراقى الحرية والكرامة، مغمورة بما ينبض فى تجاليدها من حرارة الإيمان وصدق الجهاد اللذين تحدرا إليها من الأمة الماثلة فى الرجل الخالد محمد على جناح.

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

كان، أجزل الله مثوبته، أمة وحده حقاً، خلق أمته من حلم رف فى يقينه، وخاطر استبد بخلده؛ ثم نشأها على معان عالية من العزة والكرامة، فكانت بين عشية وضحاها خامس دولة بين دول العالم، وأول دولة بين دول الإسلام.

إن محمد على جناح الزعيم المسلم يقف وحده بين عظماء التاريخ وزعمائه فوق قمة لم يطاولها وإن يطاولها عظيم من عظماء الرجال وأفذاذهم، فقد تميز بسمات وخصائص لم تتوفر لسواه.

رجل تمخضت حركته عن إنشاء دولة وبناء أمة.

ولو تراخى الزمن بفيلسوف الضاد وشاعرها المعرى، ورأى كيف تسنم جناح هضبة المجد بأمته الباكستان وأحلها أعلى قممها وأرفعها سموتاً وعظمة ما قال هذا البيت:

وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى   بأن قرارات الرجال وهودها

ومن هنا طاب لى أن يدور حديثى فى تحية عيد استقلال الباكستان على صاحب الفضل الأول والأخير فى هذا الاستقلال الضخم المتين.

فالحديث عن جناح إذن هو الحديث عن الباكستان، فهما اسمان مترادفان يتواردان على مدلول واحد من العمل الخالد والمجهود العظيم.

سمعت عن منشئ الباكستان العجب العجاب من أحاديث البطولة والتفوق، ثم أتيح لى شرف الصلة الوثيقة به، وأسعدنى بزيارة كريمة فى بيتى، فشهدت عن كثب هذه الشخصية الفريدة؛ وتحدثت إليه وتحدث إلىّ فى فنون شتى من ألوان الحديث لمست خلالها تلكم المثل العالية فى الوطنية الممتازة، والسيرة العامرة بمعجزات الجهاد.

إيمان عميق، وعزمة غلابة، ونضال كريم، يترجمها مع حديث القائد الأعظم هذا البريق الحاد المتدفق من عينيه النفاذتين، ثم هذه التجاعيد المرسومة على وجهه الدقيق التى تلخص جهاده الطويل المرير فى جمع شتات قومه ودعم استقلال دولته.

عامان مرا على ميلاد هذه الأمة الفتية؛ ففى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ أشرقت الباكستان فى الأفق الدولى دولة مستقلة

(*) ألقيت هذه الكلمة فى الاحتفال الكبير الذى أقامته جمعية الشبان المسلمين احتفالا بعيد استقلال الباكستان.

من معجزات الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري :

بين مهاجري قفقاسيا الجنوبية

قالت السيدة « هذه الأرض الطيبة فليباركها الرب لأهلها »

للأستـــــاذ أحمد رمزي بك

إن القوة الإسلامية التي بعث بها الخليفة عثمان بن عفان[1] وكانت من عرب الجزيرة وأهل الشام تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهري إلى أرض الشمال لازمها الحظ في الحروب حتى أخضعت ما وراء أرمينية ونفذت إلى بلاد القوقاز ، ولما طلبت الإمداد جاء إليها جيش من عرب الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي[1] وهو سلمان الخيل وكان ذلك المدد من المنية عن طريق أذربيجان التي يتحدثون عنها اليوم .

(١) ذكر صاحب مقالة باكو في دائرة المعارف الإسلامية اكتشاف بعض القبور الإسلامية بشواهد تحمل ٨١٨ هجريا في قصر شروان شاه وتقع في شمال باكو . أرجو الاطلاع على المراجع في نهاية الحديث

وانضم الجيشان حتى أتوا إلى بلاد الكرج وجاء صاحب فتوح البلدان بكتاب الأمان الذي أعطى إلى أهل تفليس وقال صاحب معجم البلدان إنها أي تفليس بقيت قروناً بيد المسلمين ثم خرجت من أيديهم ثم عادت فخضعت لآل سلجوق ثم لأهل خوارزم، وأخيراً لملك التتار ولا تزال بأيديهم .

فهذه البقعة من أراضي القوقاز بجبالها العالية ومروجها الخضراء وغاباتها وثلوجها ومياهها العذبة روتها دماء الفاتحين من المسلمين ، وطالما سرحوا خيولهم فيها كما أنها استظلت بأعلام العروبة والإسلام في عهود الراشدين وبني أمية وبني العباس وفي يوم قريب من الأيام القادمة سنعثر حتما على بقايا الآثار الإسلامية وسنقرأ ويقرأ من يأتي بعدنا ما نقشه السلف على الأحجار تأكيداً لتلك الفتوح وإثباتاً بأن هذه الأرض لشعوب أسلمت ودخل أهلها في دين الله أفواجاً .

ومن حوادث القرن السابع الهجري أن الأمير بدر الدين الخازندار كان على ولاية يافا من قبل المصريين في عهد الملك الظاهر بيبرس وكان لا تشرد منه شاردة فأتاه الخبر بأن ملكا من ملوك الكرج قد دخل عكا عن طريق البحر في زي الرهبان يقصد بيت المقدس للزيارة فبعث إليه وقبض عليه وسيره للسلطان بدمشق فأنزله ببرج من أبراج قلعتها حتى بعث بنفرين إلى بلاده ليعرفهم بأسره حتى إذا تأكد السلطان من حقيقته أعاده معززاً مكرماً .

وكانت الصلات قائمة على أهل تفليس وبقية سكان من جهة جورجيا وبلاد المسلمين من جهة أخرى وأطلعني صديق لي على صور لبعض المساجد هناك وعلى المآذن وقد ظهرت بغير أهلة وقال الصديق

(١) لم نتمكن من التوسع في ذكر الفتوحات ومقتل سلمان الباهلي لحاجتنا إلى تحقيق الأماكن الجغرافية والفارق ، بعذرنا لتغير المعالم والأسماء والاختلاف قائم حولها بين المستشرقين أنفسهم . ولكن أكتفي بنقل ما جاء في المسعودي عن سبب تسمية سلمان بن ربيعة الباهلي ص ٢٧٠ جزء ٤ : حدث محمد بن عبد الله الدمشقي أن الذي سماه بذلك هو عمر بن الخطاب إذ قال له : أنت سلمان الخيل ، وساق قصة جاء فيها ذكر الخيل بالقياس وورد فيها أن سلمان بن ربيعة الباهلي كان يهجن الخيل ويعربها في زمن عمر بن الخطاب .

ذات سيادة . ولقد كانت الدعوة الدينية التي اضطلع بها القائد الأعظم عدته وعديده في بناء صرح الباكستان وجعلها قوة ملحوظة الجانب مرهوبة الشأن .

ولقد ثارت العواصف حول هذه الدولة إبان قيامها ، واكتنفتها المزاعم تريدها على أن تحني الهام وتعود إلى الوحدة ، فأبي لها جناح للخنوع والذلة قائلا : « نحن نعلم المصير الأسود المهيأ لنا إذا اضطررنا يوما إلى الركوع وطلب المغفرة والعودة إلى الوحدة ؟ ولذلك وطدنا العزم على ألا نشل مهما نقاسي ومهما نشق . امنحونا سنتين ولن يستطيع أحد بعدئذ أن يرغمنا على الركوع »

ولقد صدق القائد الأعظم حين صدق الله وعده له ، فها هي ذي دولة الباكستان تسير بخطى فسيحة متوثبة طموحة إلى أبعد الغايات وأسماها في الوطنية والقومية والاجتماع .

حيا الله الباكستان من أمرها رشدا ، وشد أزر رجالها العاملين ليؤدوا رسالة قائدهم الأعظم التي تركها أمانة في أعناقهم . وسيكتب الله للباكستان الظفر بحقوقها كاملة والغلبة على ما يعترضها من صعاب ، لأنها شعب عميق الإيمان بشريعته السمحة ، عظيم الثقة برب السماء .

ووفقنا الله جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

إبراهيم دسوقي أباظة

هذا إن الناس يؤكدون أن زعيم روسيا من جورجيا والحقيقة أن والدته كرجية أما والده فهو من الشمال من أقليم « استوبا » وهو الذي يعالج عليه الجبليون « قوشحا » وهذا الصديق من أهل هذا الأقليم ويقول إن غالبية « الأساتين » مسلمون ويغلب عليهم التشيع وأن والد الزعيم البلشفي كان مسلماً شيعيا وأمه كرجية مسيحية ولما مات أبوه أرادت أن تجعل منه قسيساً فادخلته مدرسة دينية : فخرج منها يدعو إلى الثورة.

كنت في أواخر عام ١٩٢٨ بمدينة استانبول بين القارتين أوروبا وآسيا على ضفاف البوسفور ومرسة حيث يلتقي البحران وكان قد مضى تسعة أعوام أو عشرة على إمضاء هدنة الحرب الأول ، ومرأ كثر من ذلك على قيام الثورة الروسية الكبرى التي حررت الملايين من البشر في زعمها وسببت تشتيت الآلاف من الناس فقر المرء من موطنه ومن أمه وأبيه والتمس الخلاص من الموت ، فكانت استانبول أول مرحلة من مراحل الهجرة الطويلة التي بدأت عام ١٩١٨ ولم تنته بعد .

وكان المهاجرون يفضلون العاصمة التركية القديمة لا لأنها بقعة من أجمل بقاع الأرض فحسب بل لأن من بينهم من هم من أصحاب العقول أي الفكر ومن هم من أصحاب القلوب أي العاطفة ، فالأوائل يفضلون مركزاً قريباً يرابضون فيه للمراقبة وتلمس الأخبار في بلادهم أما أصحاب العاطفة فهم الذين لا يصدقون بوقوع ما قد حدث ولا يسلمون بما قد رأته أعينهم ولمسته أيديهم، إذ ليست الثورة عندهم إلا كحلم من الأحلام ، فثلهم ممن طالت به الغربة كمثل أهل الكهف « إذ يتساءلون بينهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» كذلك هم تمرّ بهم الأيام والشهور والسنوات وهم في حلم دائم ينتظرون اليقظة لتأتي إليهم بالحقيقة أو هم يسرح بهم الوهم فيقولون : « ستفتح أعيننا يوماً لنعود إلى بلادنا وأعز شيء لدينا ولن نترك استانبول أبداً لأننا الطليعة الأولى التي ستترك أرض المهجر وتستأنف حياتها الأولى بأرض الوطن يوم يزول حكم البلاشفة وليأت من بعدنا من يشاء » .

تلك كانت أمانيهم وهذه كانت آمالهم تقرأها مرسومة واضحة في عيون الفريق الأكبر من مهاجري روسيا سواء من موسكو أوشبه جزيرة القريم أو بلاد القوقاز . رأيتهم وعاشرتهم وصادقتهم وأنست بهم في العاصمة القديمة للدولة العثمانية ، كانوا من أجناس وأعمار مختلفة ولم يكونوا من طبقة أو فئة واحدة فنقول النبلاء مثلا أو الرأسماليين أو التجار أو الصناع أي الذين أضرت بهم الثورة بل كان بينهم العمال والزارعون والخدام ، لم يكونوا من جنس واحد أو وطن واحد أو دين واحد بل كانوا يهوداً ونصارى ومسلمين كانوا شيعة وسنية . فهم مع اختلاف أديانهم وطبقاتهم وأجناسهم ومراتبهم يمثلون دنيا بأكلها لا وطناً واحدا بل يمثلون قارة من القارات .

وكانوا مع اختلافهم هذا وتباين مذاهبهم السياسية والفكرية تجمعهم عقيدة واحدة وأمل ثابت وفكرة راسخة : هي أنهم مهما طال بهم الزمن وأن تقطعت بهم الأسباب سيعودون يوماً ما إلى تلك الأرض الشرود التي ولدوا عليها ونشأوا بها ، والتي ذهبت من بين أيديهم فصارت حلماً في أذهانهم يحتله الحنين الدائم والذكريات الدائمة على صدورهم وخفقات القلوب لدى أي خبر يأتي من عزيز في بلاد لا طريق للوصول إليها .

***

وكانت الحكومة التركية قد أمضت مع الحكومة السوفيتية الروسية اتفاقاً للجنسية جعلت فيه نصاً يخول كل مسلم من مسلمي روسيا يلجأ إلى الأراضي التركية الحق في اختيار الجنسية التركية وحرمت على اللاجئين من غير المسلمين هذا الاختيار فكان من نتيجة ذلك أن حمل المسلمون من المهاجرين على تبعية البلاد التي استوطنوها وتمتعوا بحقوق المواطن التركي بينا بقي الآف غيرهم يحملون جوازات السفر التي أطلقوا عليها اسم « نانسن » والتي تجعلهم عرضة للنفي والتشريد في أي وقت — وبمرور الزمن تبين لفريق كبير من المهاجرين هذا النص فقالوا لأنفسهم إن كل مهاجر من أصل روسي أو من الأجناس التي خضعت لروسيا ينشرح صدره للاسلام ويشهر اعتناقه له ، يكتسب توا الجنسية التركية ويصبح عائشاً بتلك الأرض الطيبة التي تفيض عسلاً ولبناً حيث المناظر الخلابة والمياه العذبة والطيور المغردة وحيث الحياة اللينة السهلة التي تعطي ما نشتهي، وأهم من كل ذلك العيش في عالم قريب

من الأرض التي نحن إليها — فلم لا تقدم على ذلك ؟

وكان أن دخل عدد من المهاجرين في دين الله أفواجاً منهم اليهودي والارثوذكسي والحر المقيدة ، وفيهم التاجر والعامل والفنان ، منهم من آمن بحق ومنهم آمن ظاهرياً وبقي على دينه الأصلي ولكنهم جميعاً تسموا بأسماء تركية وأخرى إسلامية وسجلوا ذلك على أنفسهم فأصبحت معاملاتهم وتصرفاتهم خاضعة لصفتهم الجديدة وشخصيتهم التي أخذوها وبهذا صاروا كاخوانهم الملتمين البقاء في تركيا والحصول على تبعية خاصة وتنازلوا عن أوراق « نانسن » وتواعدها ومضايقاتها وفي ذلك كله راحة كبرى واستقرار لهم .

ومن العائلات التي قذفت بها ثورة ١٩١٧ إلى الهجرة عائلة من أشراف مدينة تفليس تعرفت إليها بمدينة استانبول وارتبطت معها روابط الصداقة والمودة الدائمة وكان تركها لموطنها الأصلي شاملا أي كان بالخدم والاتباع صغاراً وكباراً وكانت إقامتها في مدينة استانبول ثم نقلت إلى ضاحية على الشاطيء الأسيوي . وكان منزل هذه الجماعة قطعة صغيرة من أراضي جورجيا الشهيدة يجمع كل ما في الروح القوقازية من مرح وسرور وحيوية مع أدب جم وحساسية متناهية وعطف على الفقير وتواضع مع الناس بغير تبذل وكانت مظاهر الكرم والرغبة في إدخال السرور وراحة على الضيوف من الأمور الثابتة الراسخة التي يقوم بها الصغير قبل الكبير أو الخادم عند غياب السيد ، وتفليس ملتقى الشرق مع الغرب بل هي قطعة من هذا الشرق الأوسط ارتبطنا بها خلال القرون الماضية ، لا يفصلنا عنا فاصل .

ومن منا لم يسمع بمدينة مراغه وعلمائها أو برذعة[1] وما كان عليه في الماضي وهذه الأنهار المنحدرة من جبال قفقاسيا أو من جبال آسيا الصغرى يعرفها مؤرخو العرب ويتحدث عنها مؤلفوهم ويشاء القدر أن تلتقي الأنهر وتصب في بحر قزوين . فالصلات بيننا وبين تفليس كانت قائمة مستمرة ولم يقطعها إلا مجيء الروس في غفلة من الزمن وقطعهم لهذه البلاد وحرماننا منهم وحرمانهم منا . فالوصل حالة طبيعية والقطع الروسي حالة غير طبيعية : نتساءل إلى متى تدوم ؟ ولذلك تشعر أنك لست غريباً عن هؤلاء القوم من أهل تفليس حيث تطل جبال قفقاسيا من الشمال وحيث تظهر في أحيائها المنائر وبقايا المساجد التي كانت يوماً ما عامرة .

لقد أنسنا بالأيام والليالي التي قضيناها مع القوم بل سعدنا بها وكان بالمنزل الذي يقع على شاطيء بحر مرمرة وكيل يدعى قافتراز نشأ أرثوذكسيا على مذهب كنيسة جورجيا وانتهى به المطاف أن دخل وتسمى باسم تركي ، وكان يعامل كأحد أفراد العائلة ، لا يرد له طلب ولا يجمع بطمعه إلى شدة أو إلحاح ؛ فهو جزء من البيت الذي اعتاد عليه في تفليس واستمر على العيش فيه بتركيا لا فارق بين الحالين سوى السنوات تمضي سراعاً .

كان محدثاً لبقاً له مكانه على المائدة الرئيسية : يشرب الأنخاب ويحضر لكل ضيف كلمة طيبة يلقيها بأسلوبه المطابق مرحباً بالضيف هاتفاً باسمه ولا تنسى أن الموائد تبدأ من الثامنة ولا تنتهي إلا عند أنتصاف الليل ، كانت تمد بالردهة الكبرى شتاء ، وفي الحديقة تحت ظلال الأشجار المطلة على البحر صيفاً ، حيث تكشف وأنت جالس مناظر جزر الأمراء (برنكيبو) ، ومرت الأيام واعتدنا اللغة الكرجية وألفاظ التحية بها ، وأعقب الصيف شتاء وجاءت السنوات تترى . وفي يوم أيام الصيف ١٩٣٤ توفي هذا الرجل الذي أمضى حياته مع أهل هذا البيت الكريم .

وكانت السيدة الفاضلة تعرف قدر إيمانه وتمسكه ، فأمرت بأن يؤتى بقسيس أرثوذكسي وأن يقيم مراسم الصلاة ليلا ، وأوقدت الشموع وسهر أهل البيت يتلون الصلاة وينشدون تراتيم بلاد الكرج بلسان أوطانهم ، حتى انتهى الأمر عند مطلع الفجر ، وانصرف رجال الدين وقد نفحتهم بمبلغ لا يستهان به . وكان خروجهم من المنزل تحت جنح الظلام في قارب أعد لهم لينقلهم إلى المرسى المجاور حتى لا ينتبه لقدمهم ومسيرهم أهل القرية .

وفي الصباح الباكر جاء مختار القرية ومعه الهيئة الاختيارية من أهل برستنجي ومعهم الخطيب والإمام ، وتسلموا جثمان الوكيل وتولوا غسله وتكفينه على سنة النبي العربي وتعاليم الإسلام ،

---

(١) ذكر صاحب تجارب الأمم في حوادث سنة ٣٣٢ هـ خبر غزو الروس واحتلالهم برذعة ثم طردهم منها وتسمى الآن على الخرائط Berda وتسمى نهر الترتور Terter

وساروا به فى جنازة محمولاً فى نعش على الأعناق ، حتى أتوا المسجد فصلوا عليه صلاة المسلمين ، وقاموا بدفنه فى قبور المسلمين وانصرفوا بعد أن قدموا تعازيهم لأهل الفقيد والسيدة الفاضلة

وكانت السيدة على شيء كبير من مكارم الأخلاق ، يغلب عليها الحياء وتخشى أن تجرح الناس فى عواطفهم وأفكارهم ، فاستعملت الحيلة مع مختار القرية وإمامها ، ووسطت من حاشيتهم برفق وتؤدة ، وطلبت إليهم أن يطلعوها عن رسوم الحكومة وتكاليف الجنازة ، وما يطلبه أهل المسجد الذى أقيمت الصلاة فيه ، وما تكلفته البلدية من ثمن الكفن والغسل ومكان الدفن فدهشت السيدة حينما تقدم كبير القرية وقرر أمامها : أن القرية لاتطلب شيئاً وأن الجماعة من الرجال الذين حملوا النعش متطوعون وأن ما قام به إمام المسجد وخطيبه إنما هو واجب عليهم إزاء كل مسلم ، وأن هذا البلد ليرحب بأن يدفن فى ثراه رجل نطق بالشهادتين وأتى إلى بلادهم لاجئاً لحياه الله بنور الإسلام والهداية .

ونظرت السيدة الفاضلة إلينا نحن معاشر المسلمين وقد أتمت حديثها ، وقامت من مقعدها وأخذت حفنة من تراب الحديقة وقالت : هذه الأرض الطيبة فليباركها الله ، لقد حمتنا بعد جور وأنقذتنا من ظلم ، أما إنى لم أر ما رأيت من أهل الإسلام وما يذلوه لغريب ليس منهم ، فإنى لولا قدم الإسم الذى أحمله لأعلنت اليوم إسلامى ودخلت بينكم . إننى أفهم لماذا لاتدخل الشيوعية بينكم ...

أحمد رمزى

المراجع :

(١) راجع فتوح البلدان فى باب فتوح أرمينية ص ١٩٨ وفتح أذربيجان ص ٣٢١

(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى مادة أذربيجان .

(٣) يقول بارتولد كاتب مقالة ترك فى دائرة المعارف الإسلامية :

« إن أخلاف ترك أسلموا فى القرن الثامن الهجرى » . ونهر ترك فى شمال جبال القوقاز تقع على جانبيه جمهورية القاباردای .

(٤) ذكر ابن خلدون فى تاريخه ص ٣٨٣ الجزء ٢ طبعه :

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم فى غزواتهم . فكانوا يفرون منهم حتى كروا لهم فى بعض الغياض فقتلوا منهم فتجاسروا على حربهم .

(٥) اليعقوبى جزء ٢ ص ١٤٥

كتب عثمان إلى سلمان بإمرته على أرمينية فسار حتى أتى البيلقان ، فخرج إليه أهلها فصالحوه ومضى حتى أتى برذعة فصالحه أهلها على شيء معلوم . ونفذ سلمان إلى شروان (على بحر قزوين) فصالحه ملكها ، ثم سار حتى أتى أرض سقط وصالح أهلها وفعل مثل ذلك ملك السكر (وقد يكونوا Lesginky) ؛

(٦) المسعودى ص ١٧٢ ج ١

كانت الأبخاز والخزرية يؤدون الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل .

وفى ص ٧٣ ج ١ :

وهؤلاء الضبارية (من سكان جنوب القوقاز) يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد بن مضر وأنهم فخذ من عقيل سكنوا هناك فى قديم الزمن وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم

جيوفاني بوكاشـــيو

للسيدة الفاضلة ماهرة النقشبندي

١٣١٣ — ١٣٧٥

ولد جيوفاني بوكاشيو في باريس عام ١٣١٣، حينما كان والده في زيارة لتلك المدينة في مهمة تجارية . فقد أحب الوالد فتاة فرنسية تدعى « جان » ، وكان جيوفاني ثمرة هذا الحب الجامح ، ولم يعرف من حنان هذه الأم أو ذكرياتها سوى بعض الحروف المتشابهة التي يحملها اسمه من اسمها ، إذ عاد به والده إلى فلورنسا بعد سنة من ولادته ، وتزوج مباشرة بفتاة اسمها « مرغريتا » ولدت له ولداً شرعياً سماه « فرنسكو » . لقد كانت طفولته خالية من الحنان والرحمة والرعاية ، فاتت في نفسه النشدة المثالي الإنسانية في الحياة لأنه لم يشعر بها ، وهذا يفسر من ناحية نفسية قسوته الشديدة وتهكمه المرير وعبثه بالفضائل المنوية التي يعلم أن البشر لا يعرفونها أبداً ، في قصصه ، وفي الأشخاص الذين تتصل بهم تلك القصص من قريب أو بعيد .

وقد قضى وقتاً غير يسير من طفولته في تسكانيا ، ووقتاً في مسقط رأس والده ، وحيناً في ضواحي فلورنسا ، وخاصة في التلال حول فيزول ، حيث كتب كتابه العظيم « دي كاميرون » وأعماله الأدبية الأخرى . وأرسله أبوه إلى « نابولي » وهو لا يزال شاباً في الحادية والعشرين من عمره ليتعلم مهنة تكون عوناً له على حياته المقبلة . وهناك في تلك المدينة الساحرة ، التي صبيحة يوم السبت — المقدس في كنيسة القديس لورنزو — فيامينا الابنة غير الشرعية للملك روبرت ملك نابولي الملقب « بالعاقل » ، فأحبها من النظرة الأولى حباً ملك عليه قلبه وحياته وجعله مسلوب اللب لايعيش إلا لأجلها مدة اثنتي عشرة سنة ، حتى ماتت عام ١٣٤٨ في الوباء المعروف في التاريخ الأوربي بالموت الأسود .

كان حبه يشابه في شدته حب بترارك للورا ، وقد أوحى إليه هـذا الوله العنيف جميع أعماله الأدبية الأولى ، ومن بينها أول قصة سيكولوجية في التاريخ سماها « فيامينا المحبوبة » .

وظاهر ميله الأدبي المبكر وهو في نابولي ، فرأى والده أن يوافق على رغبته في تعلم القانون ، وأن يترك ما كان فيه ، ولكن إفلاس والده المالي ، وعودته مضطراً إلى فلورنسا عام ١٣٤١ ، أعاده إلى الأدب وحال بينه وبين المضي في دراسة القانون .

وبدأ في نابولي آثاراً أدبية أتمها في فلورنسا منها « فيلو كولو » و « فيلوستراتو » و « تسيد » ؛ وزاد على تلك الآثار « اميتو » و « فياميتا » و « نتفال فيسالانو » . وعاد بعد ذلك إلى نابولي — أما فياميتا ، فقد كان قلبها يخفق بحب غيره حتى قبل مغادرته نابولي . والمعتقد أنها توفيت سنة ١٣٤٨ في وباء الموت الأسود المروع الذي يعتبر نهاية العصور الوسيطة في التاريخ ، فقد أهلك ثلاثة من كل خمسة أشخاص في فلورنسا ونابولي ومختلف بقاع أوربا وانجلترا ، فكان موتها ضربة ألمية لقلبه المعذب . وقد خلدها في الفصل الأول الذي يفتتح به كتابه العظيم « دي كاميرون » إذ يعترف أن هـذا الحب هو الذي دفعه إلى كتابة هذا الأثر الخالد ، وفي القصص التي كتبها سابقاً يعود إليها فصلا فصلا ، فيشيع في جوها حب فياميتا واللوعة على فراقها والحنين إليها .

لقد كان حبه لفياميتا الأساس لجميع أعماله الأدبية ، حتى رأى بترارك فنشأت بينهما مودة متبادلة كانت عوناً له على تناسي بعض آلامه وعلى شفاء بعض الجراح العميقة التي سببها موتها .

لقـد مات الحس المرهف في خياله ، وخبا النور الذي كان يشرق على بصـيرته في شمس الحب ، فتبلد حسه ، وتحجرت عواطفه ، وانتهت أجمل فترة من فترات الإلهـام ، فكتب بعد « دي كاميرون » كتابه « كاربا كشيو » وهو مجموعة من الهجاء المقذع ما رأته امة من الثات ، صب جام غضبه فيه على الدنيا التي حرمته الحب وعذبته بقسوتها ...

ثم هدأت الثـورة قليلا في عواطفه ، ومال من تلقاء نفسه وبتشجيع من صديقه بترارك إلى نوع من الاستقرار وتناسي الماضي ، فأخذ يدرس الآداب اللاتينية والإغريقية ، وكتب كتابه « تاريخ حياة دانتي » ، وأهدى نسخة من « الكوميديا الإلهية » إلى صديقه بترارك ، وأهدى إليه بترارك في مقابل ذلك مجموعة خطية من إلياذة هوميروس .

لقد رأى بترارك للمرة الأولى في ربيع عام ١٣٥١ في مدينة

بادوا ، حيث ذهب إليه يرحب به باسم مدينة فلورنسا ليعود من منفاه . فشاهد حماسه الشديد للآداب الكلاسيكية أو الدراسات القديمة ، وعدم رضاه عن الأدب الإيطالي ، وقد كان لذلك ، لسوء الحظ الأثر الفعال في نفس بوكاشيو ، فترك العناية بالأدب المعاصر ، وقصر مجهوده الأدبي على دراسة آداب اللغة اللاتينية وكل ما يتصل بها .

لقد كان بوكاشيو أديباً أصيلا ، وفناناً مبدعاً ، وفلتة نادرة من فلتات الذكاء التي تراها الإنسانية في سيرها الطويل في فترات متباعدة جداً ، وفي أشخاص تختلقهم القدرة المبدعة لعمل يحمله الزمن إلى ذروة الخلود . لقد خلق في كتابه « دي كاميرون » عالماً جيلا يموج بالحركة والإحساس العميق . فهو يجلس في عالم الخلود الأدبي إلى جانب دانتي وتشوسر وشكسبير . وقلما عرف التاريخ الأدبي فناناً مرهف الحس يجمع إلى فنه علماً غزيراً وجلداً على دراسات مضنية تتطلب صبراً جميلا . ليس في مقدورنا أن نزعم أن بوكاشيو كان من هذا الطراز النادر . كما أنه ليس من الإنصاف أن نبخس مؤلفاته في اللغة اللاتينية حقها من التقدير ، فقد كانت دائرة معارف الأدباء ومعجمهم في أوائل عصر النهضة ، وهو وإن لم يبذل في تأليفها أكثر من مجهود الجمع والترتيب ، كان بجلده الرائع وصبره وأناته الوحيد الذي حفظ للعالم قصائد هوميروس .

إن إيطاليا وأوربا مدينتان لبوكاشيو بحفظ آثار أعظم شاعر تفخر به الأجيال ... لقد بذل بترارك مجهوداً في جمع تلك القصائد التي لم يكن في مقدور أحد في أوربا قراءتها في اللغة اليونانية ، ولكن بوكاشيو هو الذي أخذ تلك القصائد وراح يراجعها كلمة كلمة ويعيد كتابتها مستعيناً بليون بلاتوس الذي كان يلفظ له حروف الكلمات اليونانية ، وبذلك تمكن بوكاشيو من ترجمتها بأسرها إلى اللسان اللاتيني .

كانت حياته الخاصة سلسلة من الآلام والعذاب ، ولم يكن يخفف من قسوتها عليه غير العطف الذي كان يغمره به بترارك وزيارته لأسرة هذا الصديق . كان معدماً ينغص عليه الحياة القاسية خوف وتشاؤم من الموت ومن المصير المجهول في العالم الآخر ، ذلك الخوف الذي استطاع بترارك أن يخفف شيئاً من وقعه عليه ويهدئ قليلا من سواد أفكاره . كان مهملا في زمانه لا يعرف أحداً . وابتسم الحظ له في أخريات أيامه ، فاختير لأول كرسي في جامعة فلورنسا أسس باسم دانتي ، وكأنما جاء تكريم دانتي في الوقت المناسب لتخفيف وطأة الفقر ، وراح يحاضر عن « الكوميديا الإلهية » ويدافع عن شعر دانتي ، ذلك الشعر الذي أحبه وتعصب له حتى مع صديقه بترارك . وألقى محاضرته الأولى في شهر تشرين الأول من عام ١٣٧٣ ، وكان في الستين من عمره ، واستمر يحاضر حتى بلغ النشيد السابع عشر من الجحيم في الكوميديا الإلهية ، فداهمه مرض شديد أقعده عن العمل ، وبقي يعاني سكرات الموت حتى اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٣٧٦ ، فأراحه الموت من عذاب الحياة بعد أن ذاق حسرة موت صديقه بترارك في صيف ١٣٧٤ .

***

لقد ذكرنا فيما مضى أن جميع ما كتبه بوكاشيو في اللغة الإيطالية كان من وحي فياميتا التي أحبها ، ففي الصفحات الأولى من كتابه « دي كاميرون » نرى أنه لم ينس حب تلك الفتاة بعد أن كتب عنها — أو متأثراً بها — ستة مؤلفات نثرية ، فافتتح ذلك الكتاب العظيم بالإشارة إليها دون أن يذكر اسمها ، وختمه بنفس الطريقة والأسلوب . إن جميع الأسماء التي قص على لسانها في كتابه مائة قصة في عشرة أيام خيالية محضة ما عدا اسمها « فياميتا » . أما بوكاشيو ، فإنك لا تجد له ظلا في تلك القصص المائة . إن العجب ليأخذ الناقد الحصيف وهو يرسل رأيه ويتأمل كتابه الخالد « دي كاميرون » الذي يمثل نبوغه ومجونه وتسامحه الكثير ومحبته العميقة للانسانية ، إذ يجده على النقيض في مؤلفاته الأخرى التي كتبها باللغة الإيطالية الدارجة ، لا يعبر كما عبرت من حوادث حياته الخاصة ، وآرائه في الحياة وحبه وكرهه وسخطه.

إننا نلتقي مع بوكاشيو في هذا الكتاب مرة أو مرتين ، ولكن في غير القصص التي يبدو لامعاً جداً في حوادثها وأشخاصها ورسم أهدافها .

إن تصميمه الفني لهذه القصص يدل على فن أصيل وعبقرية فذة وذكاء مفرط ، استطاع أن يشيع فيها عالماً تضطرم فيه الحياة بكل ما فيها من أحزان ومسرات ، وظواهر وأسرار . لقد نفذ

بعبقريته الفذة إلى ما وراء مظاهر الأشياء ، نفذ إلى أسرار النفس الإنسانية فصور أفراحها وأحزانها ، صفحها وانتقامها ، رحمتها وحقدها ، كرمها وبخلها ، تصويراً عميقاً شاملا ، لم تشذ عنه النفس ، ولم يتوار عنه ضمير ؛ فكان بذلك « شكسبير » عظيم الأثر في عصره ، وفي العصور التي حملها فجر الزمن من بعده ، يقرأها المرء فيجد فيها وصفاً لما يضطرب بين جنبيه من ألم وعذاب ، وصرح وسرور ، في أي عصر كان ، وهذا عمل العباقرة الخالدين !

إن كتاب ألف ليلة وليلة يتوارى خجلا أمام دي كامرون إذا وضعا في ميزان التقدير وتحت ضوء النقد . إن كتاب ألف ليلة وليلة لا يقوم في مجموعه إلا على ملك مستبد يقتل زوجاته لألم في نفسه من النساء ، وعلى شهرزاد الفتاة الأريبة التي تقص عليه تلك القصص ، ولا تهدف إلى غاية غير استبعاد الكارثة وإطالة أمد المقاومة والتعلق بآمال الغيب ، لعل المعجزة تتم فتنجو بحياتها ، ولكن هذا القلق لا يلبث أن يتلاشى رويداً رويداً من نفسها بحكم ما تثيره قصصها من اللذة في نفس الملك شهريار . أما دي كامرون ، فتقوم حوادثه على ثلاثة من الفتيان وسبع من الفتيات ولوا هاربين إلى سفوح تلال الفيزول من الموت الذي أباد مدناً بأسرها ... يروون تلك القصص متناسيا للآلام وتواريا خلفها من خيال الموت !

تعتبر مقدمة اليوم الأول من قطع الوصف الخالدة في الآداب الإنسانية عامة صور فيها مدينة فلورنسا في قبضة الوباء المهلك عام ١٣٤٨ وقد أقفرت شوارعها من الحركة وتكدست الجثث هنا وهناك وقد فاحت منها الروائح المنكرة ، تصويراً لا يلحقه فيه لاحق ... صور ذلك الصمت الشامل الذي يغشى المدينة فلا يسمع فيها غير تهتهات خافتة من بقايا أجساد حطمت الكارثة كل ما فيها من حس إنساني وشعور نبيل ، وغير مجموعات أخرى تتحرك وقد خولطت عقولها وعبث بها الرعب فغدت كأشباح الموتى .

وفي صبيحة يوم من أيام الثلاثاء تلاقت في الصلاة سبع فتيات في كنيسة القديسة ماريا نلورنسا ، فاقترحت عليهن كبراهن بامبينا أن يرافقنها إلى الريف هرباً من الموت ، حيث يمشين في أحضان الطبيعة ، في قصر ريفي لإحداهن عيشة العسلة والانقطاع عن الناس فلا تصل إليهن يد الموت وشاء المصادفات أن يدخل الكنيسة في تلك اللحظة ثلاثة شبان يتصل أكبرهم ببامبينا بصلة القرابة ، فاقترحت عليهم الانضمام إليهن فوافقوا مغتبطين .

وفي فجر اليوم التالي كانوا في طريقهم إلى ذلك الريف ، فاستقربهم النوى في قصر جميل وارته الأشجار وقامت على جوانبه الحدائق الوارفة . واقترحت بامبينا أيضاً أن يختاروا في كل يوم رئيساً عليهم يكارن إليه أمرهم بحيث يكون كل منهم مسؤولاً بدوره . وتم انتخاب بامبينا في اليوم الأول فوضعوا على رأسها أكاليلاً من أغصان شجر الغار . وبعد غروب الشمس أخذوا طريقهم إلى حقل غطى العشب الأخضر أرضه ... وهنالك جلسوا في دائرة وطلبت بامبينا ملكة ذلك اليوم أن يقص كل واحد قصة في كل يوم ، وقد رأوا في اقتراحها طرافة فوافقوا عليه ... وتلفتت بامبينا إلى بامفيلو الذي كان يجلس على يمينها وأمرته أن يبتدىء بقصة ، وهكذا تأخذ هذه القصص طريقها إلى الوجود .

من هذا النوع من التصميم تنبع قصص بوكاشيو في دي كامرون ، وهي تشابه قصص ألف ليلة وليلة في بقاء القاصين في مكان واحد في حقل العشب الأخضر في تلال الفيزول ، وفي غرفة الملك شهريار في بغداد . وهو جو يضفي على قصص الكتابين لوناً من الكسل والخمول . أما قصص كانتباري لتشوسر فتتسم بالحركة والنشاط والحياة ، فالحجاج الذين يقصون القصص لهم سمات الأحياء تميزهم وتتعرف شخصياتهم في سهولة ويسر .

والضعف الذي نلمسه في قصص ديكامرون حين نقارنها بقصص كانتباري لا يتصل بالخطوط الرئيسية في بنائها وإنما يتصل في الأشخاص . فأشخاص قصص كانتباري يتحركون فيمثلون الحياة الاجتماعية الإنجليزية في القرن الرابع عشر ، لكل منهم شخصيته مستقلة واضحة المعالم . أما أشخاص بوكاشيو فليس في المقدور تمييز الواحد عن الآخر . وليس هنالك فارق بين لورتا وفيلومينا ، وربما حسبناها ديونير أو فيلستراتو . أما فياميتا أقوى أشخاصه فإننا لا نراها وإنما نستمع إليه يصف جمالها وذكرياتها ويقحمها في مجال القصص من وقت إلى آخر .

(البقية في العدد القادم) ماهرة النقشبندي

على هامش (دراسات عن المقدمة):

رأي ابن خلدون عند الحصري

للأستاذ محمـــد سليم الرشدان

— ١ —

كتب الأستاذ أبو خلدون (ساطع الحصري بك) في العددين (٨١٩ و ٨٢٠) من الرسالة الزاهرة، بحثاً فيما أورده جواباً على سؤال تقدم به إليه الأستاذ الكبير (صاحب الرسالة) وكان مؤداه: «هل الشقاق طبع في العرب؟». وقد تطرق الأستاذ الحصري في جوابه إلى الحديث عن ابن خلدون وعن رأيه في العرب الذي جاء في مقدمة تاريخه. ثم تدرج من خلال ذلك إلى الحديث عن كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) واستشهد من هذه الدراسات (بنموذجين من البراهين المسرودة فيها). كان أحدهما من القسم الأول من المقدمة، والثاني من القسم الأخير منها.

فأغراني حديث الأستاذ هناك أن أصطحب (دراساته) تلك، لأجعلها شغل فراغي في المصيف الذي جنحت إليه، فكانت خير مشغلة، وكانت نعم الرفيق. وهأنذا أتقدم بهذه الكلمة المتواضعة، تعليقاً على هامش تلك (الدراسات) فأقول:

لقد كان الوازع الذي حفز الأستاذ الحصري لإصدار هذا الكتاب — كما أحسست من دراسته — أنه أعجب بابن خلدون إعجاباً جعله يتكنى باسمه، ولذلك يدافع عنه في رد هذا المأخذ الذي أخذه الناس عليه من رأيه (في العرب). ولقد حاول جهد طاقته أن يظاهره بمظهر الحدب الشفيق، وأن يلبس أقواله زخرفاً يخفف معه كثيراً من هذه الأشواك التي يلمسها (نابتة وشاذة) كل من ينصرف إلى دراسة آراء هذا المؤرخ الفاضل في الأمة العربية منذ أقدم أزمانها إلى أيامه.

وإنك لتجد الأستاذ الحصري في (دراساته) يبذل غاية الجهد في هذا السبيل. فهو لا يدع حجة تلوح له من قريب أو بعيد إلا ساقها. فيستشهد بنص يورده كاتب فرنسي، كما يشير إلى آخر يورده كاتب تركي. ويقبل بعد هذا على كلام المؤرخ يستفزه حيناً، ويحمله فوق ما يحتمل أحايين. ثم لا يقف عند هذا الحد، بل يلجأ إلى كلام تواطأت عليه العامة، فيدور حوله طويلاً حتى يكاد يبرزه بين معظم هذه السطور التي أعدها للدفاع عن ابن خلدون. وهأنذا أسوق للقارئ الكريم طرفاً من دفاعه، وأظهر مبلغ تساوقه مع الحقيقة، مستشهداً — ما وسعني المقام — في استجلاء ما أشكل وانبهم، بكلام المؤرخ نفسه كما أورده في مقدمته.

يقول الأستاذ الحصري عن كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي:

«إن كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون من الكلمات التي ولدت أغرب الالتباسات وأنتجت أسوأ النتائج. ذلك لأن ابن خلدون استعمل الكلمة المذكورة بمعنى البدو والأعراب، خلافاً للمعنى الذي نفهمه منها الآن، كما يتبين من الدلائل والقرائن الكثيرة المنبثة في جميع أقسام المقدمة ... (١)»

ويتحدث بعد هذا طويلاً عن دحضه أقوال الكثير ممن تحاملوا على ابن خلدون بسبب خطئهم في فهم ما يقصده من كلمة (العرب). ومن هؤلاء — على حد تعبيره — مدير المعارف العراقية الذي دعا إلى «حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية، زاعماً أنه من الكافرين بالعروبة ... (٢)»

ثم يورد بعد ذلك ما يذكره علماء اللغة في تعريف كلمتي (العرب والأعراب) فيعقب عليه بقوله: «يظهر من ذلك أن مدلول كلمة العرب تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ، ويمكننا أن نبين اتجاه هذا التطور بالصفات الثلاث التالية:

أولاً: كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم.

ثانياً: صار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية ...

ثالثاً: (وهنا موضع الشاهد) صار يشمل مدلول كلمة العرب سكنة الأمصار أيضاً، بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية، أو رجوع نسبهم إلى البادية ... (٣)»

وهكذا يحدد الحصري مدلول هذه الكلمة في صفات ثلاث

(١) ص ١٠٧ س ٣ ج ١ من كتاب (دراسات ..)
(٢) دراسات ص ص ١٠٧ س ١٤ ج ١
(٣) ص ١٠٨ س ١٥ ج ١

تطورت — كما يقول — مع أدوار التاريخ . ودعني أيها القارئ الكريم أقف بك عند كل واحدة منها ، مبتدئاً - حسب الترتيب الذي سار عليه — بالأولى حيث يقول : « كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم . . » و (كان) هذه تحتمل من الإمكان ما نعيدها معه إلى إبان صدر الإسلام وما قبله ، حيث جعلها الأستاذ بداية التطور خلال أدوار التاريخ . ولو تساءلنا على ضوء هذا التحديد ، عما إذا ورد في القرآن الكريم — وهو قاموس العربية — ما يؤيد قول الحصري ! لألفينا الجواب بأن القرآن الكريم لم يخصص كلمة (العرب) للبدو ، وإنما خصص لهم غيرها حين يقول : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ... (١)) و (قالت الأعراب آمنا ... (٢)) . وهذا النبي صلوات الله عليه يقول : « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ... (٣) » وما أظنه يقصد بالعربي (هنا) من كان مقيما في البادية دون سواه ! وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول يوم السقيفة : « نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً ... وأكثر الناس ولادة في العرب ... » وهو يقصد بالعرب أهل (مكة) . وهي حاضرة الجزيرة يومذاك .

وبما أن الأستاذ الحصري لم يحدد زمناً يربط به تطور مدلول هذه الكلمة ، فالاعتراض عليه لا يتجاوز حد الافتراض . ولذلك فإننا نقف بهذا المدى أوردناه إلى جانب أول وصف لمدلول هذه الكلمة عنده ، ثم نترك للقارئ الكريم الحكم عليها . وننتقل إلى الصفة الثانية فنجده يقول فيها : « صار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية .. » ولا أظنه يقف ابن خلدون عند هذا التعريف . وإنه لو فعل ذلك لأقام الدليل بنفسه على بطلان ما يقوله في دفاعه عنه . ولأثبت عندئذ أن ابن خلدون إنما قصد أهل الأمصار من العرب بقوله ، وهو عكس ما يريده ويبتغيه . . إذن فلم يبق أمامنا غير التعريف الثالث ، وهو الذي يقول فيه : أن مدلول كلمة العرب « صار يشمل . . سكنة الأمصار بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية . . » وفي هذا الوصف ثالثة الأثافي ! فهو إن كان قد تطور خلال أدوار التاريخ ، فلا بد من أن يكون قد عاصر ابن خلدون أو تقدم عنه

(١) س التوبة آية ٩٧ (٢) س الحجرات آية ١٤
(٣) من خطبته في حجة الوداع

أو جاء بعده . فإن كانت الأولى أو الثانية ، فقد جعل قوله حجة عليه ، ولم تبق هنالك حاجة لإقامة برهان . وإن كانت الثالثة ، فقد أنطق ابن خلدون بالغيب ، وجعله يتحدث بلسان الزمن قبل أن يجيء . وهيهات أن يكون ذلك كذلك !!

وإليك أيها القارئ ما يجيبنا به الأستاذ على كل ما تقدم حين يقول : « ومما تجب ملاحظته أن هذا التطور لم يكن تاماً ولا قاطعاً .. لأن الطور الأول لا يزال مستمراً في استعمال العوام .. فقد سود الناس في جميع البلاد العربية استعمال كلمة (العرب) بمعنى البدوي والفلاح ... (١) »

ولا أدري كيف (تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ) ثم نجد تطوره بعد ذلك (لم يكن تاماً ولا قاطعاً) !! بل يستمر الطور الأول منه في استعمال العوام إلى يوم الناس هذا !! وإنه ليلذ لي أن أتساءل في هذا المقام : لماذا لم يظهر مثل هذا الالتباس في مدلول كلمة العرب على أقلام المؤرخين ممن سبق ابن خلدون أو تأخر عنه ؟! ولماذا لم يظهر كذلك في شعر الشعراء ممن تقدموه أو عاصروه ، ما دام هذا هو مدلول الكلمة منذ طورها الأول الذي كان في بداية أدوار التاريخ ؟!

وورود الحصري بعد ذلك — تأييداً لابن خلدون — مثلاً شعبياً كثيراً ما تلوكه ألسنة العامة من أهل الحواضر ، فيوردونه شاهداً على فساد ذوق البدوي ، وهو قولهم : « الكل عند العرب صابون ... » وأشهد لقد سمعته كثيراً ولكن بتحريف بسيط ، فذكرني بـ (غير عزيز !) ، وأعاد للنفس ذكريات مفزعة من الماضي الرهيب الذي توالى على الأمة العربية فصبرت عليه صبر الجبال ... أجل لقد سمعت هذا القول كما سمعه الحصري فذكرني بشيء غاب عنه تذكره ، ذكرني بذلك الاستعباد الطويل الذي تقلبت هذه الأمة بشتى مطارفه ، يوم كان العربي في حاضرته يضطر — كارهاً أو مختاراً — أن يتشبه بذلك المتسلط القاهر فيحاكيه في عجمته ، ويماثله في بزته . يوم كان العلج في عنجهيته يقف أمام هؤلاء الأعراب الذين يردون الحواضر ، فيتأذى بصره المترف رؤية شقائهم البادي من خروق أسمالهم ، فلا يجد شتيمة يحقرهم بها ، فتوصل إلى قرارة نفسه الرضوان ، أكثر من أن

(١) الجزء الأول من كتاب (دراسات ..) ص ١٠٩ س ٣

يردد على ملأ منهم قائلا : « عرب ! عرب ! » .

وإن كنت فى ريب من ذلك فسل من شئت : هل عسيت إن شاكسك رجل من أهل هذه الدساكر حتى بلغ منك ما تكره ثم أردت أن تثأر لنفسك منه ، فهل رأيتك تتمتم بأكثر من أن تقول له : « فلاح ! فلاح ! » إلا أن هذه قرينة تلك ، وكلتاهما مما خلفته لنا عصور الاستعباد الطويل ، وتلقفناه عن أفواه أولئك المستعبدين ، بينما يورد الأستاذ الحصرى هذا الشاهد يعلق عليه طويلا ويتحدث عن مبلغ تفشيه بين العامة فى شتى الأقطار ، وهذا أمر سلمنا له به ، ولعل فى ردنا عليه الكفاية . ثم ينتقل إلى الاستشهاد بأقوال كبار المؤرخين والباحثين ، ملتمساً فى ذلك ما يقوله شاهداً على صواب ما يورد . وإنى أتناول واحداً من هذه الأقوال الكثيرة ، فأتخذه شاهداً على عكس ما يقول ، وأؤكد له أن (الثعالبى والقالى وابن السكيت وابن الأثير) وغيرهم ممن استشهد بهم ، لم يخرجوا قيد أنملة عما تآلف عليه الناس منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم . إنهم حين لا يفرقون بين باد وحاضر يقولون : (عربيا) وإذا ما أرادوا أهل البادية دون سواهم قالوا : (أعرابيا) أو (بدويا) . وهذا نص يورده الأستاذ يؤيدنى على ذلك ، وهو قوله : « وإننا نجد فى المثل السائر .. لابن الأثير .. ما يلى : (فإن قيل إن ذلك البدوى كان له ذلك طبعاً وخليقة ... فالجواب على ذلك أنى أقول : إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فأنا أقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب(١)

أرأيت كيف يقفك عند قوله : (البدوى) حين أراده قبل أن يهجر باديته ، ثم يطلقها بعد ذلك حين لا يريد مثل هذا التحديد؟!

وليت شعرى كيف يرتضى الأستاذ الحصرى أن (يحصر) مثل هذا العدد الوافر من كرام المؤرخين ، وأن (يحصر) نفسه أيضاً فى حدود هذه الدائرة الضيقة حين يؤكد أنهم أرادوا جميعاً بقولهم (العرب) أهل البادية فقط ؟! وعماذا سموا إذن — لله أبوهم — أهل الحواضر من عرب الشام والحجاز ومصر والعراق والمغرب والأندلس ؟! هل قالوا حاضرى أم حضرى أم كيف ؟! لقد توقعت أن أجد للأستاذ قولا مثل هذا ، فكنت أجد منه مولجاً للاعتراض ، ولكنه لم يفعل بل ترك الأمر غامضاً ملتبساً ! وأن الأستاذ الحصرى بعد ذلك يتحدث عن ابن خلدون فيؤكد

(١) الدراسات جـ ١ ص ١١١ س ١٤

(ما ذهبت إليه) غاية التأكيد . وذلك حين يقول : « لم يستعمل ابن خلدون فى المقدمة كلمة (الأعراب) و (الأعرابى) ، إلا قليلا جداً . فإنه قد استعمل كلمة (العرب) أو (العربى) فى نحو (٣٠٠) موضعاً ، فى حين أنه لم يستعمل كلمة (الأعراب والأعرابى) إلا فى بضعة مواضع ... (١) »

هو ذلك ! لأن الرجل أراد أن يسير على نهج زمانه ، وهو منهج كل زمان من أزمان العربية ، لذلك يطلق كلمة العرب على كل عربى من غير ما تخصيص ، ويخص أهل البادية — حين يريد أن يميزهم عن سواهم — بقوله : (الأعراب) . وهذا القرآن الكريم — وكان وما يزال (قرآناً عربياً غير ذى عوج) — وقف عند هذا التحديد بعينه ، وسار الناس بعد ذلك على مناهجه و (أرى) أن ابن خلدون ما تجاوز ذلك إلى سواه . .

ويأخذ الأستاذ الحصرى بعد هذا فى اقتباس الشواهد من المقدمة ، للتدليل على ماذهب إليه ، فيقول : « لنبدأ من الفصل الذى يتضمن أقسى الأحكام وأعنف الحملات على (العرب) . فلنلاحظ الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون : « إن العرب إذا ما تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ، ولنتمم النظر فى الأدلة التى يذكرها لتعليل وتأييد رأيه هذا : (فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ... فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى للقدر ، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ... والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ...) ومن البديهى أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام ، فلا مجال للشك فى أن ابن خلدون عند ما كتب هذه العبارات لم يفكر قط بأهل دمشق أو القاهرة ... بل إنما قصد أعراب البادية وحدهم ... (٢) »

والذى أقوله ، ويقوله ذلك الفصل بعينه ، يغاير ما أورده الأستاذ الحصرى ، ويؤكد أن ابن خلدون أراد البدو وغير البدو ، وأقول بتعبير آخر : إنه أراد العرب على اختلاف مشاربهم . وتبين ذلك من قوله الذى يكمل به ذلك الفصل بعينه . فهو يقول بعد الكلام الذى استشهد به الحصرى (مباشرة) ما يلى : « فهم متنافسون فى الرئاسة ، فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ،

(١) الدراسات جـ ١ ص ١١٣ س ٣

(٢) الدراسات جـ ١ ص ١١٣ س ١٢

وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان ، كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه ، فاليمن قرارها خراب ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والمغرب[1] » . فهل نتبين من ذلك كله أنهم البدو فقط ؟ ! وإذا كان الذين عمروا اليمن والشام والعراق وأفريقية والمغرب هم (البدو) ، فمن هم (العرب) إذن ؟ ! ثم يخطو الأستاذ الحصري بعد ذلك خطوة لا تخلو من تعسف ، وهي أنه يصدر بحكم مبرم مؤداه أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) في سائر فصول المقدمة غير (البدو) ، ولم يتجاوز ذلك إلى غيره قط . فيورد هذا بأن يقول : « إن ابن خلدون لم يستعمل كلمة (العرب) بمعنى البدو في فصول الباب التي ذكرتها فحسب ، بل استعملها على نفس المنوال في فصول الأبواب الأخرى أيضاً[2] »

وهكذا يحملنا الأستاذ في حل ، لنلتمس ما يناقض دعاءه (في سائر الفصول) ، بعد أن أكد — كما رأيت — أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) في سائر الفصول سوى البدو وليس غيرا ويستشهد بعد هنا ببعض كلام ابن خلدون مقدماً له بما يأتي : « يوجد في الباب الرابع أيضاً فصل خاص بالعرب ، وهو الفصل الذي يقرر : (أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل)[3] . ثم يأتي على ذكر ما قاله ابن خلدون من العرب في هذا الباب فيقول : « والعرب إنما يراعون مراعي إبلهم خاصة ، ولا يبالون بالماء طاب أو خبث ... ولا يسألون عن زكاء المزارع والنابت والأهوية ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات[4] » .

ويعلق على ما سلف بما يلي : « يظهر من ذلك بكل وضوح أن العرب المقصودين في هذا الفصل هم البدو الذين يعيشون في القفار ولا يوجد في هذا الفصل كلة واحدة تنطبق على أهل الأمصار[5] » وفي هذا المقام أيضاً استشهد من الفصل عينه ، مؤكداً أن في هذا الفصل أكثر من (كلة واحدة) تنطبق على العرب الأولين الذين خرجوا من الحجاز واليمن ، من مكة والمدينة والطائف وصنعاء وظفار وغيرها (وهي أمصار كلها !) بل خرجوا

(1) المقدمة مط مصطفى محمد سنة !! ص ١٥٠ س ١٦
(2) دراسات جـ ١ ص ١١٤ س ٨
(3 ، 4) دراسات جـ ١ ص ١١٥ س ١٢ ، ١٨
(5) دراسات جـ ١ ص ١١٥ س ٢١

جميعاً من مدرسة محمد (ص) بعد أن قذف في قلوبهم هذا الإيمان الراسخ ، فإذا هم يعلمون الحضارة لأهل الحضارة .

أجل ، تنطبق على هؤلاء بعينهم ، ويتضح ذلك مباشرة بعد آخر كلة يوردها الأستاذ الحصري في النص الذي استشهد به من كلام ابن خلدون ، وذلك حين يقول : « وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس[1] » .

ألا ترى — يا أخي القارئ — صدق ما أشرت إليه من خلال هذا النص الذي (بُتر) أوله ليؤدي معنى غير معناه الذي أراده له صاحبه ؟ ! وهل اختط الكوفة والبصرة والقيروان إلا رجال أفذاذ من أقران (عمر ومعاوية وابن العاص) وغيرهم ممن ساسوا البدو والحضر فأحكموا السياسة ؟ !

ثم يتدرج الأستاذ الحصري بعد كلام طويل إلى قوله : « ومما يزيد الأمر وضوحاً وقطعية أن ابن خلدون يعود إلى هذه القضية (أي أن العرب بمعنى البدو) في بحث العلوم أيضاً ، إذ يقول بعد أن يشبه العلوم بالصنائع : (وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، وصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها) ... يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلة (العرب) مرتين مقابلا لكلمة (الحضر) بشكل لا يترك مجالا للشك في أنه يقصد منها (البدو)[2] » .

والذي أقوله : إن كلام ابن خلدون لا يدع مجالا للشك فيما يقصد . ويوضح لنا في كلمات تلي (ما استشهد به الأستاذ الحصري) ما يقصده من الكلمتين (العرب والحضر) . وهأنذا أورد قوله ليتضح وجه الصواب : « والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف[3] » .

أرأيت كيف كان يقصد بقوله (الحضر) غير العرب ، وأن العرب لديه هم العرب سواء سكنوا البادية أم الحاضرة ؟ !

ولما كان المقام لا يتسع لمناقشة جميع الشواهد التي أوردها الأستاذ الحصري من كلام ابن خلدون ، لذلك أكتفي بهذا القدار الذي أوردته منها ، ملمحاً إلى أن جميع ما جاء في هذا الصدد

(1) المقدمة الطبعة السابقة ص ٣٠٩ س ١٢
(2) دراسات ص ١١٦ س ١٩ ج ١ ط بيروت
(3) المقدمة ص ٥٤٤ س ٧

من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٥ —

ونلاحظ أن أبا دلامة لم يكن يصله — غالباً — شيء من المال إلا بنادرة كما رأينا في قصة سلة الوصيف ، أو بحيلة كما سترى الآن في قصته مع العباس بن محمد — عم المهدي — الذي كان من أبخل الناس :

دخل أبو دلامة يوماً على المهدي ، فحادثه ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم يصلك ؟ قال : إن أمنتني أخبرتك ، وإن أعفيتني فهو أحب إلي . قال : بل تخبرني وأنت آمن . قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بني العباس . قال : ومن هو؟ قال : عمك العباس بن محمد . فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جأ[1] عنق الماص بظر أمه . فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تنح يا عبد السوء لا تحنث يمين مولاك وتنكث عهده وأمانه . فضحك المهدي وأمر الخادم فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبخل الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقال له المهدي : والله لو مت ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيته فأجازني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم . فانصرف أبو دلامة فخبر للعباس قصيدة ثم غدا بها عليه وأنشده :

قف بالديار وأي الدهر لم تقف على المنازل بين الظهر[2] والنجف

وما وقوفك في أطلال منزلة لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف

إن كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها فلا وربك لا تشفيك من شغف

(١) جأ : اضرب .

(٢) الظهر : موضع . والنجف (بالتحريك) موضع بظهر الكوفة وهو دومة الجندل بينها ، وبالقرب منه أمير المؤمنين علي بن طالب .

لايعدو ما ذكرته في مكانه من الحقيقة . وحسبك —في كشف الغطاء عنه — أن تواصل قراءة تلك النصوص في المقدمة عينها لينطق لك ذلك الكلام (المبتور) بأن ابن خلدون إنما عنى بقوله (العرب) ، العرب الذين يعرفهم الناس منذ خلق الله العرب في الناس !

وأما الكاتب الفرنسي الذي أشرت إليه في بداية هذه الكلمة وقلت إن الأستاذ الحصري استشهد به ، فهو الأستاذ (العرباني[1]) البارون (دوسلان) ، وقد ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية قبل ثمانين عاماً ، وقال فيها عن مدلول كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي :

Les arabes (Jbni Khaldoun) sont les arabes nomades (٢)

وترجمة ذلك : « أن عرب ابن خلدون هم الأعراب . . » .

كما أن الكاتب التركي الذي أشار إليه الأستاذ الحصري هو المؤرخ (جودت باشا) . وقد ترجم كلمة عرب — كما يقول الأستاذ في (دراساته) اعتماداً على ما فهم من كلام ابن خلدون ، فأثبتها : « في مواضع كثيرة على شكل (قبائل عرب) . . (١) » .

ومن هنا (أكاد) أجزم بأن الأستاذ الحصري إنما جاءه أو نبهنا الرأي الجديد نقلا من هذين الكاتبين . وإنني لا أجد تعليلا (لوهمهما) هذا إلا أنهما أبصرا في بعض المواضع اقتران كلمة العرب بالإبل والخيام فحسبا أن عرب ابن خلدون ليسوا سوى أهل البادية من الأعراب . غير أن الحقيقة التي لا تغيب عن باحث هي أن ابن خلدون لم يكن يدقق في التمييز بين أهل البادية وأهل الحاضرة من العرب ، فكان يسميهم جميعاً (عرباً) على أنه كان يستعمل كلمة (الأعراب) أو (البدو) حين يريد أن يحصر مدلول كلامه في حدود معينة . وهذه الحقيقة مشاهدة في مقدمته ، وظهورها أعم وأبين في دراسات الأستاذ الحصري عن ابن خلدون ، وذلك حين يحصي عدد ما أورده ابن خلدون من كلا التعبيرين فيقول إنه ذكر العرب (كذا) مرة ، وذكر الأعراب (كذا) مرة . وقد ذكر ذلك وعلقت عليه في خلال ما أسلفت .

(البقية في العدد القادم) محمد سليم الرشدان

ماجستير في الآداب واللغات السامية

(١) استعمل هنا اللفظ بمعنى (للمفرق) للرحوم النشاشيبي

(٢) Les Prolegomenes d.Ibni khaldoun vol 3 pag488

(١) دراسات ص ١٢٣ س ٢٠ ج١ ط بيروت

دع ذا وقل في الذي قد فاز من مضر
بالمكرمات وعز غـــير مقترف[1]

هـــذي رسالة شيخ من بني أسد
يهدي السلام إلى العباس في الصحف

تخطها من جواري المصر كاتبة
قد طالما ضربت في اللام والألف

وطالما اختلفت صيفاً وشاتية
إلى معلمها باللوح والكتف

حتى إذا نهد الثديان وامتـــلأ
منها وخيفت على الإسراف والقرف[2]

صينت ثلاث سنين ما ترى أحداً
كما يصون تجار درة الصدف

فبينا الشيخ يهدى نحو مجلسه
مبادراً لصلاة الصبح بالسدف[3]

حانت له لمحة منها فأبصرها
مطلة بين سجفيها من الغرف

فخر والله ما يدري غداتئذ
أخر منكشفاً أم غير منكشف

وجاءه الناس أفواجاً بمائهم
ليغسلوا الرجل المغشي بالنطف[4]

ووسوسوا بقرآن في مسامعه
مخافة الجن والإنسان لم يخف

شيئاً ولكنه من حب جارية
أمسى وأصبح موقوفاً على التلف

قالوا: لك الويل ما أبصرت؟ قلت لهم
تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف

فقلت: أيكم والله يأجره
يعين قوته فيها على ضعف

فقام شيخ بهي من رجالهم
قد طالما خدع الأقوام بالحلف

فابتاعها لي بألفي درهم فأتى
بها إلي فألقاها على كتفي

فبت ألثمها طـــوراً وأرشفها
طوراً وأمتنع بعض الشيء في اللحف

فبين[5] ذاك كذا إذا جاء صاحبها
يبغي الدراهم بالميزان ذي الكفف

وذكر حق على زيد[6] وصاحبه
والحق في طرف والطين في طرف

وبين ذاك شهود لا يغرمهم
أكنت معترفاً أم غير معترف

فإن يكن منك شيء فهو حقهم
أو لا فإني مدفوع إلى التلف

فضحك العباس وقال: ويحك أصادق أنت؟ قال نعم والله. قال: يا غلام ادفع إليه ألفي درهم ثمنها. فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القصة وما احتال له به. فأمر له المهدي بستة آلاف درهم وقال له المهدي كيف لا يغرم ذلك؟ قال: لأني معدم لا شيء عندي. وفي رواية: إن العباس بن محمد قال له: شاركني في هذه الجارية يا أبا دلامة. قال: أفعل ولكن على شريطة. قال: وما هي؟ قال: الشركة لا تكون إلا مفاوضة[1] فاشتر معها أخرى، ليبعث كل منا إلى صاحبه ما عنده، ويأخذ الأخرى مكانها ليلة وليلة. فقال له العباس: قبحك الله وقبح ما جئت به! خذ الدراهم لا بارك الله لك فيها وانصرف[2].

وإنما أوردنا هذه القصة بتمامها لكيلا نمسخها إذا اختصرناها فتفقدها كثيراً من جمالها: ولعلك تذكر أننا استشهدنا بها على وصول أبي دلامة إلى المال بأسلوب الاحتيال، ولاسيما مع البخلاء من الناس.

والواقع أنه كان لا ينجو من نوادر أبي دلامة وهجائه إلا من أعطاه فأجزل عطيته. وإنه ليكون المرء أبغض الناس إلى قلبه، فإن هو وصله بشيء أضحى أحبهم إليه. وكان الناس يفرون من هجاء أبي دلامة فرارهم من نوادره بهم، فإذا تجرأ أحدهم على النيل منه أو ذمه عرف كيف يسلقه بلسانه الحاد.

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده محرز ومقاتل ابنا ذوال يسانيانه على تقريبه أبا دلامة وبمبيانه عنده. فقال أبو دلامة:

ألا أيها المهدي هل أنت مخبري
وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي؟

ألم تر أن الشيخين من لحيتيهما
وكلتاهما في طولها غير طائل؟

وإن أنت لم تفعل فهل أنت مكرمي
بحلقهما من محرز ومقاتل؟

فإن يأذن المهدي لي فيهما أقل
مقالاً كوقع السيف بين الفاصل

وإلا[3] تدعني والهموم تنوبني
وقلبي من الملحيين جم البلابل

فلم يدعه الخليفة للهموم تنوبه، وإنما ساعده على الملحيين فقال له بتمم أمنيته: أو آخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يفديان بهما أعراضهما منك؟ قال ذلك إلى أمير المؤمنين. فأخذها له منهما وأمسك عنهما[4].

(١) مقترف: مكتسب.
(٢) القرف: التهمة. (٣) السدف: الظلمة.
(٤) النطف: جمع نطفة (بالضم) وقد مر أنها الماء الصافي قل أو كثر.
(٥) المشهور في مثل هـــذا أن يقال: فبينا ذاك كذا أو (بينما) وقد جاء بها أبو دلامة هنا على الأصل.
(٦) زيد هو اسم أبي دلامة كما مر.

(١) شركة المفاوضة هي الشركة العامة في كل ما يملكه الشريكان.
(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٦٥.
(٣) فعل الشرط محذوف — أي وإلا تفعل تدعني.
(٤) الأغاني ج ١٠ ص ٢٦٦.

فلا يُرضى المهدىّ إذاً أن يسمع من أحد تجريحاً بشخص أبى دلامة لأنه واجدٌ فيه أنسه ومرحه ، وقابلٌ إياه على ما فيه من عيب ومنقصة ... ولا يُرضى أبا دلامة ويُسكتُ لسانه السليط إلا المالُ يُعطاه وفيراً !

وكما يهجو أبو دلامة مخلوقاً أملاً فى الوصول إلى بعض ماله ، تراه يمدح آخر للغرض ذاته . وقد ينتظر مطلوبه من سواه كما حدث يوم دخل أبو دلامة على المهدى وعنده شاعر ينشده . فقال له : ما ترى فيه ؟ قال : إنه قد جهد نفسه لك فاجهد نفسك له فقال المهدى : وأبيك إنها لكلمة عذراء منك أحسبك تعرفه ! قال : لا والله ما عرفته ولا قلت أنا إلا حقاً . فأمر الشاعر بجائزة، ولأبى دلامة بمثلها لحسن محضره[1] .

ولقد صدق أبو دلامة ، فما كان أطراؤه الشاعر عن معرفة سابقة به أو بعد وقوف على شىء من شعره — وإنما هى كلمة تعجب المهدى وتسر قلبه ، وهى — بعد ذلك — وسيلة هينة للوصول إلى شىء من المال الذى يجزى به الخليفة من كان لبقاً حديثهُ ، حاضرة بديهته ، سديداً جوابه .

وكما درس أبو دلامة نفسية المنصور فاستطاع أن يأخذ منه الجوائز السنية — على بخله — عرف كيف يفهم المهدى حق فهمه لكى ينال منه — فى مختلف المناسبات — أكثر مما يحلم به . ونجده لذلك يحرص على إضحاك الخليفة التى تفيض بداه كلما تهلل وجهه : خرج المهدى وعلى بن سليمان إلى الصيد، فسنح لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل ، فرمى المهدىُّ ظبياً بسهم فصرعه ، ورمى علىّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدى ظبياً شك بالسهم فؤادَهْ
وعلى بن سـليما نَ رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما ، كل امرىء يأكل زادَهْ !

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه ، وقال : صدق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سنية . ويقال : إن على بن سليمان لقب منذ ذلك اليوم « صائد الكلب » وعلق به[2] .

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٦٤ .
(٢) الأغانى ١٠ ص ٢٦٩ .

وما دام الخليفة يملأ عين أبى دلامة ويشبع بطنه ويعطيه من المال ما يجعله مغموراً بفضله ، فما على الظريف إلا الإخلاص فى طاعته ، والصدق فى محبته ، وإدخال السرور عليه ولو لم ينتظر منه شيئاً ، لأن فضله سابق عليه : لذلك كان أبو دلامة ينتهز الفرصة ليثبت أن تقريب الخليفة له مصيبٌ موضعه ، فهو الذى ينفس عنه كربه ، ويسرى عنه غمه ، ولو كان هو نفسه مغموماً .

مر أبو دلامة بنخاس يبيع الرقيق ، فرأى عنده مَنْ من كل شىء حسن ، فانصرف مهموماً ، فدخل على المهدى فأنشده :

إن كنت تبغى العيش حلواً صافياً فالشعرَ أغرِبْه وكن نخاسا
تنل الطرائف من ظراف نُهَّـدٍ يحدثن كل عشية أعراسا
والربح فيما بين ذلك راهنٌ صحاً ببيعك كيتاً أو مكاسا[1]
دارت على الشعراء حرفة نوبة تتجرعوا من بعد كأس كاسا
وتسربلوا قُمص الكساد فحاولوا بالنخس كسباً يذهب الإفلاسا

فجعل المهدى يضحك منه[2] .

وليضحك الخليفة ما شاء فما نص عليه أبو دلامة هذه القصة ولا نظم ذاك الشعر إلا ليضحكه ويسرى عنه ، ويحيطه بجو مشبع بالأنس والسرور !

(يتبع) صبحى إبراهيم الصالح

(١) مكس فى البيع يمكس (من باب ضرب) نقص الثمن والمراد هنا المشاحة فى البيع والشراء .
(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢٥١ .

قلب يتحدث ... على أي شيء؟!

للأستاذ محمد رجب البيومي

تباطأت عنى بعد طول تسرع على أى شىء كل هذا التمنع
تصنعت هجراً فاستحال طبيعة فيالك طبعاً قد أتى من تصنع
يخادعنى شوق فأحسب أننى أراك تناجينى بمرأى ومسمع
أحاديث يحسوها الفؤاد كأنما تعاطى بها كأس الرحيق المشعشع
ويدهشنى أنى أرى كل ليلة خيالك عندى لا يبارح مضجعى
تذكرت ما قد كان بالأمس بيننا من الود فانهلت على الفور أدمعى
عشية تلقانى ببشر كأنما
نزلت بروض ضاحك الزهر مونع
أراك على بعد فأنتز عاجلا إليك وقلبى خافق بين أضلعى
تجاورنى جنبا لجنب كأنما أتيت إلى الدنيا لتبقى بها معى
وكنا إذا نمشى يقولون إخوة تغذوا بأخلاق الهدى ثدى مرضع
فكيف غدا روض الصداقة بلقعا تصيح به الغربان فى كل موضع
أمر على ناديك كل عشية وبى غلة إذا اقتربت منك تنقع
أحدث نفسى أن أجيئك زائرا وأحذر ما عودتنى من ترفع
فأرجع حران الجوانح صاديا وقد كنت من حبى على قيد أصبع
أنقل خطوى فوق شوك من الأسى كأنى أمشى إذ أسير لمصرعى
ويرهقنى التفكير فيك فأنثنى إلى مكتبى كالحائر المتصدع
تمر فلا تلقى على تحية !! وتلك التى تدمى فؤادى بمبضع
وتقرئ أعدائى السلام ودونهم سهامه أعيت ناظر المتطلع
فياليت شعرى هل توهمت أننى أمامك تمثال من الصخر لا يعى
ويا ليت أنى حين أخجلت موقفى تسترت حتى لا تراك بمربع
أتعرض عمن كان ظلا مجاورا فأين تسير فى رقعة الأرض يتبع
هنيئاً لأرباب الوشاية بيننا فقد حققوا فى أمرنا كل مطمع
أطأطئ رأسى إن تقدمت نزلنا وإن كان فى جنبى مهجة أروع
وفاء بعهد قد تغيب فى الثرى وشيعته عمداً ولما أشيع
إذا هاج بى وجدى أقول لعلها سحابة صيف آذنت بتقشع
ولكن أرى الجو الرحيب ملبدا بغيم متى يشخص لعينى تهمع
تمر الليالى وهو فى القلب راسخ رسوخ الأسى فى قلبى المتوجع
تهيج بى الذكرى فأطرق جازعا ومن يذكر عهد الصداقة يجزع
وأخفض للغبراء رأسى كأنما أقول لها : إنى أمامك فابلعى
فيا كبدى صبراً جميلا على النوى ويا مهجتى بالله لا تتقطعى
ويا من نأى عنى بغير جريرة ولم يبق غير النار تلهب أضلعى
نصحتك بالحسنى وأنت مخير فدونك فافعل ما بدا لك واصنع
فإن تقترب عنى إلى غير رجعة فبين يدى السم فلأتجرع

(الكفر الجديد) محمد رجب البيومى

وداع ...

عن الإنجليزية للشاعر «كوفنترى باتمور»

ترجمة الآنسة «ن. ظ. ع»

رغم إحساسى وطوع الـ عقل ليئت الوداع
قد بدا الآن وما لى من عزاء فى الصراع

رغم إيمانى سأمضى فى خطاى الواهيه
لست أدرى كيف أخطو من دموعى الهاميه

وجهتى للغرب حيثا أنت نحو الشرق
لهف نفسى كيف أنا بعد هذا نلتقى

حين يخبو حزننا القا تل ويحلو المجرع
حين تجلو من مآقيـ ـنا غمامات الدموع

سوف نلقى الليل مزدا نا بأسراب النجوم
والأمانى عاودتنا بعد إعصار الهموم

رغم ما تبدين من صد ق وأبدى من إباء
وارتحالى فى طريق لا يؤدى للقاء

نلتقى وجها لوجه فى ذهول تام
لست أدرى كيف سرنا فى طريق دائر

بعد ذاك النأى والتجـ ـوال فى وادى الشقاء
سوف نحيى ما حيينا ذكر هذا الالتقاء

ن . ظ . ع

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

واقعة حال مع المازني :

وقعت هذه الواقعة من نحو ثلاثة عشر عاماً ، وكنت طالباً في مطلع الشباب . كان الأستاذ كامل كيلاني قد أصدر كتاب « أساطير ألف يوم » فكتب الأستاذ المازني نقداً له في جريدة « البلاغ » وكنت قد قرأت الكتاب فسررت من قصصه وأعجبني أسلوب المؤلف في سياقتها . فلما قرأت نقد المازني له بدت لي أوجه في الرد عليه ، فكتبتها وبعثت بالرد إلى « البلاغ » فنشرته ونشرت معه تعقيب المازني عليه . وقد جاءني من التعقيب أنه لم يتضمن تفنيد شيء مما أوردته في الرد ، ولو أنه سفه كلامي وبين فيه وجه فساد أو قال مثلا إنه يدل على عدم الفهم أو نحو ذلك ، لكان الأمر أهون عليّ مما وقع ...

ذلك أنه ألمع إلى أن للأستاذ كامل كيلاني يداً في الرد إن لم يكن هو كاتبه ، وزاد على هذا أن ذلك مما يزهده في نقد الكتب وأنه سيمسك عن هذا النقد ...

كنت أجن من ذلك ، وامتلأت نفسي سخطاً على المازني ، فكتبت رداً على ذلك التعقيب ناقشته فيه مناقشة عنفت فيها ، ومما قلته إنه لا ينبغي أن يكتب ما يكتب ثم يعتصم مني في « قلعة التقديس » وأذكر أن كلمتي تضمنت هذا اللفظ بعينه ، وتوجهت إلى دار البلاغ ، وقصدت إلى مكتب المازني حيث ألقيته ، فدفعت إليه الرد وأنا أنظر إليه نظرة معناها : هاأنذا فهل تريد أن تعرف أني صاحب الرد الأول ؟

وتناول المازني ردي وألقى عليه نظرة خاطفة ، ولم يزد على أن قال : « طيب حاضر » فسلمت بالإشارة منصرفاً كما فعلت مقبلا . ورضيت نفسي بأن أبلغته الرد ، وقلت يستوي بعد ذلك أن ينشره أولا ينشره ، المهم أني جابهته بما أريد .

وفي اليوم التالي رأيت كلمتي منشورة في البلاغ بحذافيرها وفيها ما فيها من العبارات القاسية الموجهة إلى فقيدنا اليوم .

اغتبطت بنشر الرد ، ولكن خاطراً قال من قيمة هذا الاغتباط في نفسي : أيكون الرجل قد استهان بي وأراد أن يدلل على أنه لا يحفل بمثلي مهما كتب ؟ ولكن ألا يكون ذلك من قبيل الإفساح لحرية الرأي ؟ ترددت بين هذا وذاك ، ولكن الأمر المحقق الذي لا شك فيه أني أكبرت المازني منذ ذلك الحين وصنعت له في نفسي تمثالا سيبقى ما بقيت .

وبعد أن مضت سنوات على ذلك الحادث ، التقيت بالأستاذ كامل كيلاني ، وقال لي غير مرة : أنا لا أنسى أنك هاجمت الأسد في عرينه ! ولكني لم أغتر بكلمة الأستاذ كيلاني ، لأن الذي قرّ بنفسي أن الأسد أكبر نفسه من أن يصغر في مدافعتي ، فمكن لي من الهجوم عليه ...

المازني والإذاعة :

على أثر ما وجهه بعض الكتاب إلى إدارة الإذاعة من اللوم على تقصيرها في تسجيل مسرحيات الريحاني أعلنت الإذاعة في عجلتها أن همتها لم تقعد عن تسجيل أصوات العظماء وأعلام الأدب والفكر والفن في مصر ، وأنها قامت بذلك فعلا ، حتى أصبحت لديها هذه السجلات .

ثم توفي المازني ، وظهر أن الإذاعة الهامة ليس لديها أي تسجيل لأحاديثه ... ولا أظن المشرفين على الإذاعة لم يسمعوا بأن للمازني أدب كبير ، فلماذا لم يسجلوا شيئاً من أحاديثه ؟ لقد قالوا إنهم سجلوا أصوات أعلام الأدب وأريد أن أصدقهم ، فلم إذاً لم يسجلوا له فيمن سجلوا لهم ؟ أليس هو من أعلام الأدب ؟

ولم يظفر المازني من عناية الإذاعة بعد وفاته ، بغير نعي قصير في نشرة الأخبار ، في الوقت الذي نسمع فيه المحطات العربية من خارج مصر تتحدث عن المازني وتفيض في الحديث عنه .

فلم كل هذا يا إذاعة ؟ ألأنه غضب من الفوضى المتغلغلة في أعمالك ، ولم ترضه تصرفاتك غير اللائقة معه ، فانقطع عن مواصلة أحاديثه ؟

وأريد بعد ذلك أن أسأل : هل الإذاعة مرفق عام من مرافق

الدولة العامة تعرف للناس أقدارهم كيفما كانت علاقة موظفيها بهم أو هي ملك خاص لهذه الفئة المشرفة عليها ، من رضيت عنه قربته وكانت له ، ومن لم يحظ برضاها أعرضت عنه وأهملت شأنه مهما كان مكانه ؟

عيد الباكستان :

احتفلت سفارة الباكستان بالذكرى الثانية لاستقلال الباكستان يوم الإثنين ١٥ أغسطس الحالي بدار جمعية الشبان المسلمين . وقد اشتمل الحفل على برنامج حافل من الخطب والقصائد والموسيقى والغناء ، وتجلى فيه روح المودة والإخاء بين الوطنين الإسلاميين الباكستان ومصر ، تجلياً رائعاً يبعث الأمل في استعادة تماسك البنيان الإسلامي ، ولقد كان سرورنا نحن المصريين لا يقل من سرور إخواننا الباكستانيين بعيدهم وعيدنا عيد استقلال الشقيقة الناشئة الكبيرة : الباكستان .

وقد تحدث الخطباء وأنشد الشعراء فعبروا جميعاً عن ذلك الشعور وأشادوا بما يجمع بيننا من التراث الإسلامي والثقافة الإسلامية ، ومن هؤلاء الخطباء والشعراء الدكتور حسين الهمداني اللحق الصحفي بالسفارة وأصحاب المعالي إبراهيم دسوقي أباظه باشا وحافظ رمضان باشا وصالح حرب باشا والأستاذ إبراهيم اللبان والدكتور إبراهيم ناجي والأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم المحامي .

وقد أفاض حافظ رمضان باشا في الكلام على الاسلام من حيث هو عقيدة ونظام ، وبدأ حديثه بالإعراب عن شعوره حينما دعي إلى هذا الحفل ، فقال إنه لبى هذه الدعوة ، وقد جرى أخيراً على رفض الدعوات إلى الحفلات الكثيرة التي تقام لمناسبات وأغراض مختلفة ، لأن رجال الباكستان أعلنوا أنهم يضعون دستور بلادهم على أساس التعاليم الإسلامية ، وقال إن الإسلام هو دين العدل والحرية والمساواة والإخاء ، وإنه لا يوافق الديمقراطيات الحديثة فحسب بل إن هذه الديموقراطيات لم تستطع أن تخالف مبدأ واحداً من مبادىء الإسلام .

ولما جاء دور الأستاذ إبراهيم اللبان شرع في بيان تاريخي لتطور الدولة الإسلامية في الهند ، واسترسل إلى إجادة المثقفين الباكستانيين للغة الإنجليزية ، ذاهباً إلى أن هذا يتيح لهم التقريب بين الإسلام والعقلية الأوروبية . والأستاذ اللبان عالم مستقيم

كشكول الأسبوع

◻ وافقت وزارة المعارف على إنشاء معهد للثقافة الإسلامية في إسبانيا يحمل اسم الفاروق من أغراضه تنظيم التعاون الثقافي بين مصر وإسبانيا ، وتمكين دارسي الأدب العربي والثقافة الإسلامية من الاستفادة بما خلفه العرب في إسبانيا من آثار وخاصة المخطوطات العربية التي تزخر بها المكتبات الإسبانية .

◻ كان الأستاذ علي محمود طه قد أصيب بمرض حاد منذ شهر تقريباً ، ومنع الأطباء زيارته ، مما زاد القلق عليه . ويسرنا أن نذكر أن الأستاذ قد تماثل من علته وتقدم نحو الشفاء .

أسبغ الله على شاعرنا الكبير ثوب الصحة والعافية .

◻ قررت الحكومة المصرية تأليف وفد رسمي يمثل مصر في مهرجان « كان » السينمائي الدولي — من محمد الشريف بك ومحمد رشدي بك ويوسف وهبي بك وسليمان نجيب بك وأحمد سالم .

◻ وافق معالي وزير المعارف على ندب الدكتور محمد عوض محمد بك المدير العام للثقافة بوزارة المعارف ، لحضور اجتماع الدورة الرابعة لهيئة اليونسكو التي ستعقد بباريس من ١٩ سبتمبر إلى ٥ أكتوبر المقبل .

◻ أوشكت اللجان المشكلة بمجمع فؤاد الأول للغة العربية لمراجعة المعجم اللغوي الوسيط ، على الانتهاء من مراجعة أصوله ، وسيأذن مجلس المجمع عند اجتماعه في شهر أكتوبر المقبل في طبعه . والمعجم يقع في نحو ألف صفحة من القطع المتوسط ، وقد حوى أهم ما يحتاج إليه المثقف من ألفاظ العلوم والفنون والآداب إلى جانب المواد اللغوية العامة .

◻ أوصى أحد الكبار بقبول متن في الإذاعة ، فلما رأى المشرفين عليها مترددين في قبوله قال لهم : خذوه ، وعلى كل حال إذا رأيتم أن للمستمعين سروراً منه فاصرفوه !

◻ صدر أخيراً كتاب « الوساطة الروحية » للأستاذ عبد اللطيف محمد الدمياطي ، وهو يبحث في الوساطة الروحية من النواحي المختلفة : في التاريخ ، ومن ناحية العلم والعمل ، والعلاج الروحي ، وما إلى ذلك . وقد سلك فيه المؤلف مسلكاً واضحاً يقف منه القارىء على ما يهمه من هذه الأبحاث .

◻ قرر استديو مصر الفني في إنتاج فلم محمد علي بعد رفض اللجنة المالية بمجلس النواب ما اقترحته وزارة الشؤون الاجتماعية من اعتماد ثلاثين ألف جنيه لمساعدة الاستديو في إنتاج هذا الفلم وقد رفع « السناريو » إلى الجهات العليا ، فإذا ما وافقت عليه أخذ في الإخراج والتصوير .

◻ صدر السجل الثقافي لسنة ١٩٤٨ التي أعدته إدارة التسجيل الثقافي بوزارة المعارف . وقد طبع منه ألفا نسخة ، ووافق معالي وزير المعارف على أن يهدي منها ١٠٠٠ نسخة إلى الشخصيات والهيئات التي لها صلة بالثقافة العامة ، وأن يباع الباقي بسعر النسخة ٤٠٠ مليم .

الشكر ، ولـكنه لم يراع مقتضى المقام فى حفل يتعاقب فيه خطباء كثيرون ، فأطال مع خلو كلامه من العناصر الخطابية الشوقة ، فنال أكبر حظ من تصفيق الحاضرين — حتى اضطره هـذا التصفيق إلى أن يقطع كلامه ويجلس ساخطاً على المصـفقين المحتجين .

وكم كان جميلا وطريفاً أن تمتلى الطربة ملك خشبة المسرح ، وقد ارتدت « السارى » ثوب المرأة الباكستانية ، فغنت « نشيد الباكستان » الذى نظمه الأستاذ عبد المنعم إبراهيم ، وهو نشيد جيد حبـذا أن تتخذه الباكستان نشيداً دائماً ، على أن يلحن تلحين الأناشيد ، فقد « غنت » فيه ملك على طريقتها المرونة بصوتها الجميل ، فأطربت ولـكنها لم تؤده باعتباره نشيداً ، فقد كانت تلين وتطرو عند ما تنشد أو تغنى مثلا :

عيد باكستان أضحى عيد مجد المسلمين

وكـسَّرت « المسلمين » وأنثته برقة صوتها ، وهو جمع مذكر سالم ...

الباكستان تتجه نحو العروبة :

التفت هذا القلم إلى دولة الباكستان الفتية منذ أشرقت عليها شمس الاستقلال ، واتجهت مشاعر أهلها وأنظار قادتها إلى توطيد الصلاة بالبلاد العربية وإحياء اللغة العربية وآدابها وثقافتها بين مسلمى الهند الذين أصبح لهم كيان مستقل بالباكستان . وقلت مرة : إنى أرصد هذه الدولة الفتية كما يرصد الفلـكى حركات نجم جديد . وهأنذا اليوم أنظر إلى هذا النجم فيسرنى أن أراه صاعداً فى السماء ...

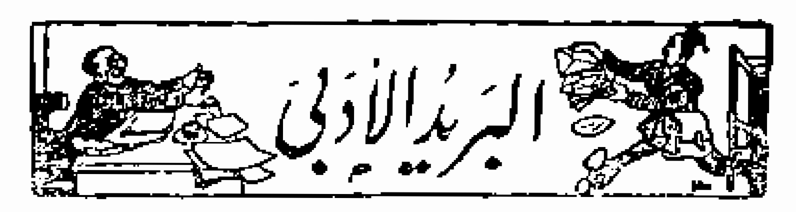
إن حضارة الأمة الباكستانية ولغتها وعاداتها وتقاليدها ، مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية ، ولم يستطع الزمان أن أن يمحو ميلها الشديد إلى العرب بسبب الروابط الدينية والتاريخية الوثيقة التى تربطها بهم ، ولم يمنع اكتمال عروبتها إلا الظروف والأحداث التاريخية فى القرون الأخيرة إذ حكمها الترك والمغول ثم الاستعمار الإنجليزى فى آخر المطاف . ورغم هـذه الظروف والأحداث لم تزل الصبغة الإسلامية باقية ، ولا يزال الأثر العربى بارزاً فى مظاهر الحياة المختلفة ، فاللغات المحلية كالسندية وغيرها تحتوى على ألفاظ لا حصر لهـا من اللغة العربية كألفاظ الجبل والنهر والمطر والقلم والعلم والمدرسة والكاتب والحكيم والمدير وغيرها ، واللغة السندية تكتب حتى اليوم كتابة عربية . ويقال إن اللغة الأردية لو أسقطت منها الكلمات العربية استحال استـــعمالها .

وقد تخلصت الباكستان من الاستعمار البريطانى ، وأصبحت بلاداً حرة ، فجعلت تقوى صلاتها بالعرب ، وكان من ذلك ما أبدته من المؤازرة فى قضية فلسطين أمام هيئة الأمم المتحدة ، ثم هذه الأريحيـة العظيمة التى جادت بنحو خمسين ألفاً من الجنيهات للاجئين من عرب فلسـطين ، وهو مجموع ما تبرعت به دولة الباكستان وشعبها .

ولاشك أن الإسلام والعروبة صنوان ، والباكستان الإسلامية تتجه الآن إلى العروبة اتجاهاً ظاهراً ، لا بتعزيز علاقاتها بالدول العربية فحسب ، بل كذلك بما شرعت فيه من العمل على نشر اللغة العربية بين أهلها والبدء باتخاذها لغة ثقافية لها ، إلى ما تدعو إليه الضرورة الدينية من فهم لغة القرآن الكريم ، وسيفضى ذلك إلى اتخاذ العربية لساناً قومياً لا تقاً باكبر أمة إسلامية ، وإن توحيد لغة التفاهم بين المسلمين كفيل بالتقارب وتبادل الآراء بينهم . وحكومة الباكستان جادة فى تعليم اللغة العربية بمدارسهـا ، وهى تتجه فى ذلك إلى مصر كما تتجه إلى الأزهر خاصة للتوسع فى التعليم الإسلامى . وقد افتتحت الإذاعة العربية من الباكستان يوم الاحتفال بعيد استقلالها ، وبرامج هذه الإذاعة حافلة بالإنتاج المصرى فى الفنون والثقافة ، وقد اختير لإدارة هذه الإذاعة شبان مصريون مثقفون .

وبعد فإنى أريد — مع اغتباطى بكل تلك المظاهر — أن أهمس فى آذان زعماء الباكستان وقادتها ، أن يبدؤا بأنفسهم فيتعبروها قليلاً جعل اللغة العربية ، لتكون لساناً لهم بدل الإنجليزية فى البلاد العربية على الأقل .

عباس خضر



حياة الريف في الأدب :

إن الخضرة النامية التي تكسو الوادي الخصيب لتبدو رائعة حينما تأتلق بين أعطافها الإشعاعات الحانية المرسلة من شمسنا الوادعة ، والأبصار تختلب حينما يجذب أحداقها مرائي الصور الخلابة في مرائي الأحاسيس الشاعرة ؛ فأين مصور حياة الريف بعد الانفعال بمظاهر روائعه الأخاذة ؟.

لقد صعد بنا الخيال إلى أقاصي الصعيد ، ومتعنا رؤية المرئيات التي شاهدت بها عواطفنا أسمى ما يصل بين الخالق والمخلوق ، وعلى الرغم من معاناتنا التأزم النفسي لم يتقلص شعورنا بل كانت الباصرة تطل من نافذة الإيمان على مشاهد الوجود ، فتأنس إلى الوحدة ، وتستأنس الوحشة ، ويقال : إن نقد الشيء أيسر من وجوده ؛ ونحن لا نتطاول في نقدنا إلى درجة التعجيز ، أو تدفعنا غرة الغرور إلى الاستصلاف ، وإنما نبغي التنويه بما يجب أن تتجه إليه الشاعر ؛ فالأدب مقفر من معالم « البيئة » ، لانصراف الأذهان عن الاتصال بالحياة الأصيلة الفطرية إلى الصنعة الوافدة الراكدة !.

لقد بلغت الجهود الاكتفاء بأوصاف أجزاء الأجسام « العارية » عن الإنسانية ، تيكد الشاعر خياله ، وديباجته ، ولغته في تصيد الألفاظ التي تكشف سيئاتها عن سوآتها ! ، وهو يكون رائعاً إذ يصف الثغر ، والنهد ، والساق ، والشعر وما « بل ..! » ، وقد تناسى تلك التهادية في خفر الأنوثة حاملة جرتها على رأسها تناغي مع مناغاة ماء النيل أعذب غنوة من أطهر شفة !. ، يذهب بالتغني « بالنوامة » إلى تجاهل روعة « المركب الشراعي » الذي لا زال وفياً بعهده ، باقياً على وده !.

إن أدبنا تقير في تصوير « البيئة » ، وطغت موجة التقليد للصحف البعيدة عن حياتنا وعاداتنا ، وطبيعة بلادنا ، حتى كاد يغمرنا طوفان ننسى معه قوميتنا !

لا نعني بالأدب المنثور والمنظوم من الكلام ، وإنما نقصد كل لون فني يسمو بالمعاني الإنسانية ، كالتصوير والنحت والخيالة ذات القصير المعيب ! . ولا ننسى أن أدبية ملهمة موفقة كالسيدة « بنت الشاطئ » قد كتبت عن الريف ، ولا زالت تنهز النهزات « للتعريف » به لمن جحدوه وجفوه وأنكروه لكن صوتاً واحداً مهما تبلغ جهارته لن يكون بعيد الأثر إذا لم يكن من دخائل الطباع ما يحثها على تعرف مواضع الجمال في هذا الريف وتمجيده ، والتباهي في مقام المفاخرة ، والإشارة بما رسمه الفن على صفحة النفس من الانفعالات التي ترتفع بمعالم الوطن إلى مواطن الخلود !

(بور سعيد) أحمد عبد اللطيف بدر

حول لغوي القول :

١ — دأب الكتاب على جمع باسل على بواسل ، وتردد هذا الجمع في هذه الأيام وصفاً لجنودنا . ويعلم السادة الأفاضل — الكتاب — أن الجنود رجال أبطال وقوم عقلاء فلما يصفونهم — من الوجهة الصرفية — بين ربات الحجال وفاقدي العقول .

وهذا الجمع غريب شاذ ، فلا المعاجم تذكره ولا القياس يبرره ولا السماع يؤيده ، فلما لا نقتله ونحيي لفظين رشيقين صحيحين يستعذبهما الذوق ويستلهمهما القلم وهما بسل وبسلاء .

وقد ورد هذا الجمع في تعقيبات الأستاذ أنور المعداوي في العدد (٨٩١) من الرسالة .

٢ — ومما يقلبه الكتاب — عامتهم — قلباً ويمسخونه مسخاً ويسلخونه سلخاً استعمالهم تواً بمعنى « الساعة وحالاً » فيقولون ذهب تواً وذهب لتوه .

وهذا المعنى تلفظه المعاجم وتنبذه اللغة وما قالته هو التو بمعنى الفرد ، فذهب تواً أي فرداً أو لم يلوه شيء والصواب توه .

٣ — ويقال التحق بالجيش وبالمدرسة ، وهذا غير فصيح وليس بالصريح ، بل هو عامي مولد كما جاء في تاج العروس والصواب لحق وألحق .

هذا ما أردت إثباته ، ثبتنا الله على الفصيح والسلام ...

(المنصورة) عبد الجليل السيد حسن

نقد وتعقيب :

كان الأستاذ أبو حيان جائراً أشد الجور في نقده لكتاب .. « الهجاء والهجاءين » ولو كان محقاً فيما قاله لقبلناه منه وحمدناه له برغم ما في المقال من ألفاظ التهكم التي لا تليق بكبار الكتاب ولكنه مع هذا كان مجانباً للصواب في بعض ما أخذه على المؤلف الكريم ...

فالأستاذ الناقد يقول في البيت الأول : « كيف يحدى أبو بكر بالرماح .. فالحادى يحدو الإبل بغنائه تنساق خلفه وتطرد وراء حدائه .. فكيف يمكن أن تكون الصورة حين يضع الرماح في موضع الحداء .. وفات الناقد أن الحدو أو الحداء ليس الغناء فقط ، وإنما هو سوق الإبل والغناء لها .. والرماح — حالة إرسالها .. صوت يشبه الترنم والغناء قال الشماخ :

إذا نبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وعلى هذا فالصورة الشعرية واضحة لا تعقيد فيها ولا التباس .. أما قوله بأن يحذى بالذال المعجمة بمعنى يطعن فدخلها التحريف. فلا حاجة إليه بعد أن اتضح المعنى على التخريج الذى ذكره للمؤلف ورضيناه .. فضلا .. من أنه لم يُسمع حذا بالذال بمعنى طعن كذ وحذق وحنف .. وإنى أود أن يكون الناقد رفيقاً فيما يتناوله بالنقد ...

(أسيوط) كيلاني حسن سند

إلى الأديب الأستاذ الكبير راجي الراعي :

أعجبتني خطرات فكرية رقيقة ، وأضواء ذهبية مشرقة دبجتها براعتكم بالعدد ٨٤٠ من الرسالة . ولقصوري من الإحاطة بالمراد من العبارتين الواردتين في مناجاة الشمس وهما « يا ابنة الله » « يا عين الله » أرجو التفضل بجلاء ما غمض منهما خدمة للحقيقة والأدب ولكم منا عاطر الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

(المنيا) دسوقي إبراهيم حنفي

حول تصحيح :

طالعت تعقيب الأستاذ « غازى » على شرح الأستاذ « أبي حيان » لبيتي الحطيل بن أوس — ومع تقديرى لرأى الأستاذين رأيت أن أدلى بدلوى في الدلاء ، فأقول : كلمة « الرجال » في البيت الثاني قد تكون محرفة من « الرحال » جمع رحل والمقصود بها الأحياء ، وكذلك كلمة « هبنه » محرفة من « هجنه » بمعنى أفزعنه وأرَّنه ، فلا يبقى محل لتخطئة الأستاذ « غازى » للشاعر : فيكون البيت هكذا : .

ولكن يحدى بالرحال فهجنه إلى قدر ما إن يقيم ولا يسرى

وبذلك يستقيم معنى البيت والله أعلم .

(كفر الدوار) أبو معارة



الشـــــقاء المقدّس ...!(*)

[إلى اللائى يعشن فى مأتم الروح ... عزاء من الحياة]

للأستاذ أنور المداوى

كانت أجمل امرأة فى عصرها ، وكانت أشقى امرأة ... أما جمالها فحسبه أنه كان وحياً لأمير النثر الفرنسى شاتوبريان ، وأمير الشعر لامرتين ، وسيد كتاب القصة الثانية بنجامان كونستان . وأما شقاؤها فلو قدر لفنان أن يصنع تمثالا للجمال البائس ، أو يرسم لوحة للأمل اليائس ، لما وجد لفنه خيراً من قصة مدام ريكاميه !

عندما وفدت إلى باريس عام ١٧٩٣ ، كانت الثورة الفرنسية المجنونة تلتهم أبناءها فى غير رفق ولا هوادة . وكانت نفس الصغيرة جولييت برنار تفيض أسى ولوعة لمنظر الذاهبين إلى المقصلة : نساء ورجال ، فى ميعة الصبا وفجر العمر ... يذهبون إلى غير رجعة . وشعب يصفق للدماء المراقة تجرى هنا وهناك ، وهو أبداً ظمآن لا يرتوى ! ... أية نفوس تلك التى خلت من معانى الرحمة وأية قلوب تلك التى تحجرت فلا ينبض فيها عرق بعاطفة ، وأية عقول تلك التى أذهلتها القسوة فلا تصغى لصوت برىء ولا تحفل بشكاة مظلوم ؟! ... كانت جولييت الفاتنة تحدث نفسها بهذا كله وهى تصبح وتمسى على منظر واحد : مقصلة ، ودماء ، وشعب يلهو بضحاياه كما يلهو عالم التشريح بحيوان بائس يئن تحت أطراف مبضعه ... ولكم ودت أن تفر من هذا العذاب إلى بلد آخر ، تنعم فيه بالهدوء والصفاء والأمن ، وتلقى بنفسها فى أحضان الطبيعة الحانية : تشبع عينيها من النهار المشمس والليل المقمر ، وتملأ رئتيها من الهواء النقى ، يحمل إليها رائحة الزهر لا رائحة الدم ، وغناء الطير لا أنين الضحايا ، وتلقى نفوساً لم يدنسها حقد ولا ضغينة ، بل يجمع بينها صفاء ووفاء ، ووداعة وقناعة ، ولكن أين هى من هذا كله ؟ ... لقد قدر لها منذ أن فتحت عينيها على الوجود ، أن تعيش فى العذاب : إحساساً ورؤية !

كانت فى ربيعها الخامس عشر حين كان مسيو ريكاميه يتردد على بيت أبويها ، وكان أبواها يدركان أن ريكاميه الثرى وصاحب المصرف الشهير ، لا يتردد على بيتهما إلا لأنه يحب ابنتهما كل الحب ، ويعجب بها كل الإعجاب ... وما أكثر الذين كانوا يتهافتون على جمالها النادر فيرتدون على أعقابهم إلا ريكاميه ، فقد وصل . وصل بماله إلى قلب الأم والأب ، ولكنه لم يصل إلى قلب جولييت ... وحين خطبها إلى أبويها ألحا على ابنتهما أن تقبله زوجاً فقبلت على مضض ! كان فى الأربعين من عمره ... خمسة وعشرون عاماً تفصل بين قلبين ، ومزاجين ، وشعورين . وهنا يلتقى الخريف بالربيع ، ويبيع حياتها بخريف حياته ! وعاشت فى قصر ريكاميه كما تعيش الملكات ، ولكنها كانت تحس الفقر فى كل مكان تطؤه قدماها ... لقد مضت بها الأيام ثقلة متشابهة ، لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح . أى شباب هذا الذى تقذف به المقادير فى خضم من أعاصير الحيرة ، فلا يدرى على أى شاطىء ترسو سفينة أحلامه وأوهامه ؟! ... لقد مرت شهور ومدام ريكاميه لا تزال عذراء كما كانت . حياة كلها غموض وأسرار ، ولقد كان الحياء وحده هو الذى يمنعها أن تسأله عن سره ... سره الذى طال ! أى إنسان هذا الذى يحوطها بعطفه وحبه وحنانه ، ثم لا يقربها كما يقرب الأزواج ... ؟! كانت تتعذب فى صمت ، وتبكى للجمال يذوى بين يدى الحرمان ، ولا تجد الجرأة على أن تفاتحه يوماً بما يختلج فى نفسها : أليس رجلاً ؟ أليس زوجاً ؟ ألا يهزه هذا الجمال ؟ ألا يصير راهباً إلا حين تربط بينهما المقادير ؟! وتنطلق الكلمات على شفتيها كصفوف جيش أعدت للهجوم ، وتلتهب الأفكار فيما بينها إلتهاب القنابل ... ولكنها حين تلتقى بزوجها وجهاً لوجه ، تموت الكلمات ، وتخور العزيمة ، وتخمد الجرأة ، ولا يبقى إلا الحياء يشل منها اللسان ، ويجعل منها إنسانة ضعيفة مسلوبة

(*) عن كتاب « مدام ريكاميه » للسياسى الفرنسى الكبير ادوار هريو ، ومراجع أخرى .

الإرادة ! كانت تتلهف إلى شيء واحد ... هو أن تعلم سره . ولكن سره الرهيب كان أمنية بعيدة المنال ، وعاشت مدام ريكاميه وماتت ، دون أن تعلم شيئاً. لقد عاشت عذراء ، وماتت عذراء !!

ثلاثة هم الذين كانوا يعلمون سر ريكاميه : الله ... وهو ... وأمها !! كان يمكن أن يبوح مسيو ريكاميه بسره إلى زوجته ألا ما أقسى سخرية القدر ! ... أيقول لها إنه أبوها ، وإنها ثمرة حبه من أمها ؟! أمن الممكن هذا ؟ زوج وأب ؟ وتريد ابنته أن يباشرها كزوج ؟ ... إنه يحنو عليها كما لم يحن على إنسان ، ويؤثرها بحبه وعطفه ورعايته ، لينسيها على مر الزمن هذا الذي تفكر فيه ، ويرمض جوانحها بالعذاب ! واستطاع مسيو ريكاميه على الأيام أن يحل الروح من نفسها محل الجسد ، وأن يزيح عن كاهلها كثيراً مما تعانيه .

أما لماذا تزوجها وهو يعلم أنها ابنته ، فذلك سر آخر ... كان ريكاميه من أنصار الملكية ، وكان ينتظر يومه الذي لا مفر منه على أيدي الثوار . وكان يدرك أن المقصلة في انتظاره ، وإذا كانت قد أخطأته اليوم فلن تخطئه غداً ، فلمن يترك ملايينه بعد مصرعه ؟ ليس هناك من يستحقها غير ابنته .. جولييت برنار ! ومن هنا تزوجها ليكفل لها حياة هنيئة ، يسعد فيها هذا الجمال الذي ينتسب إليه . كان يخشى أن يثير الظنون إذا ما ترك لها ثروته دون علاقة تربط بينها وبينه ... ولكن المقصلة تخطئه ، والثوار يغفلون عنه ، ويقدر لمسيو ريكاميه أن يعيش ليتعذب وأي عذاب أكثر من هول الشعور الذي كان يرزح تحت أثقاله .. الشعور بأن زوجته هي ابنته ؟! لكم ود أن يطلقها ولكنه لم يستطع ، إنها ابنته ومن حقها وحدها أن تنعم بثروة أبيها . وماذا يقول الناس ، وماذا يقول زوجها الآخر إذا ما قدر لها أن تتزوج من بعده ، حين يكتشف أنها خرجت من بيته وهي عذراء ؟ ! أليس في ذلك ما يجرح كرامته كرجل يعتز برجولته ؟ أليس من المحتمل أن يكتشف سره فيتهامس به الناس ، فلا يلبث أن يكون حديثاً تجهر به الشفاه ؟ ! ... ويلح عليه العذاب حين يخلو إلى نفسه ، ويشعر أن زوجته ، تلك الزنبقة الغضة ، قد أرغمت على أن تعيش بسببه بين حر الرمال ولفح السمائم ! شيء واحد كان يعجب له مسيو ريكاميه ولا ينتهي له عجب ، هو ما تتحلى به ابنته من طهر وعفاف ، على الرغم من أن حياتها الزوجية قد خلت من الرجل ! ... لقد كانت مدام ريكاميه محط أنظار الشباب وحديث أمانيهم ، يتهافتون عليها في كل مكان من أجل نظرة أو ابتسامة . وما أكثر ما كانت تنظر إليهم وتبتسم لهم ، وتضن عليهم بما دون ذلك ... إنها امرأة ، وجميلة ، فلم لا تفيض على ركب المعجبين من هذا النبع الفياض ، وهم الذين يشعرونها في كل لحظة بأنها إنسانة ساحرة ، تنطق بذلك وجوههم فلا حاجة بها إلى مرآة ؟! من هنا كان ريكاميه يعجب بها ويعجب لها ، ويزداد حبه لزوجته وتقديره لابنته ... وكانت مدام ريكاميه تنسى مرارة الحرمان حين ترمقها نظرات المعجبين ، وحين تنادي شفتيها شفاه الظامئة ، فتمتنع وفاء للزوج ، واستجابة للضمير ، وإرضاء للدلال ! ... جمال تتقاذفه أمواج الحرمان فحرم من نعيم الحياة وحرم منه الناس ، وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ، عاشت في تربة من عفاف وصون فعزت على القاطفين !

كان قصرها في « كليشي » أشبه بندوة عامرة يؤمها رجال السيف والقلم بين حين وحين ، وصالوناً من تلك الصالونات الفخمة التي كانت تزخر بها باريس ويقصد إليها المترفون من الرجال والنساء لتغذية العين والفكر والخيال ... وفي يوم من أيام قصرها الحافلة بالترف والإيناس والمتعة ، يقع لمدام ريكاميه حادث يهز كيانها هزاً عنيفاً ، وتتذوق في ظلاله طعم الري ، وتنسى حرقة الظمأ ، وتشعر كما لم تشعر من قبل ... بأنها امرأة ! كان ذلك في حديقة القصر حين ركض وراءها ابن أخت ريكاميه ، وكان شاباً جميلاً من ذلك النوع الذي يخلب ألباب العذارى ... وكانت هي تنفر منه في دلال ، وتضحك من عجزه عن اللحاق بها ، ولكنه يلحق بها ويحتويها بين ذراعيه ... وكادت تصعق من هول المفاجأة ، فراحت تقاوم في عنف ، ولكنها أحست بوجهها يلتهب تحت أنفاسه المحترقة ، وبشفتيها تذوبان في شفتيه ، وبكيانها يتلاشى في كيانه . وفي غمرة النشوة رأت نفسها تغيب معه في حلم جميل ، وتطوق عنقه بذراعيها ، وتدفن وجهها في صدره ، وتنظر في عينيه نظرة طويلة حالمة ... نظرة امرأة استيقظ في أعماقها الرجل ! وحين أفلتت من بين يديه تطلعت إليه كغزال مذعور ، وانطلقت تجري إلى القصر ... كانت تريد أن تخلو إلى نفسها لتستعيد الحلم الجميل مرة أخرى !

حرك هذا الحادث في نفس مدام ريكاميه كل عاطفة خامدة ، وأثار كل شعور كامن ... وراح الفكر الحيران يسبح في خضم الوجود ، باحثاً عن أمنيات ضلت طريقها من طول ما لقيت من ظلام وضباب . والذهن الكليل يحلق في أجواء الخيال ، يبني من قصور الأوهام ما شاءت فنونه وشجونه . والقلب الثائر يرسل أنّاته في نبضاته ، فلا يسمع لها صدى من عطف حبيب أو رفيق ، والروح الشاردة تعبر عالم الأسى والأنين مرتاعة ملتاعة ، تنشد الري فلا تجد إلا الظمأ ، وتترقب النشوة فلا تحس إلا الألم ، وترجو الفرحة فلا تلقى إلا الشجن ، ولا تعود من عالمها هذا إلا بأشتات التي تحتضر !

وتمضي الحياة في طريقها تطوي الأيام حتى تقف بمدام ريكاميه عند يوم لا ينسى ... لقد رآها نابليون في ذلك اليوم في حفلة من تلك الحفلات الصاخبة التي كان يعج بها قصر أخيه لوسيان !

كان لوسيان يهيم بها ، ويتقرب إليها ، ويلقي إلى الصيد الجميل بكل ما شاء من شباك ، ولكنه لم يكن يظفر إلا بابتسامة عذبة تحمل إليه كثيراً من المعاني ... ولوسيان من هو ؟ جمال تحلم به كل فاتنة ، ووزير الداخلية ، وأخو القنصل الأول والحاكم بأمره ! وعلى كثرة الوجوه الفاتنة التي كانت تزخر بها حجرات القصر وردهاته ، فإن نظرات بونابرت النفاذة لم تستقر إلا على وجه مدام ريكاميه ، وحين مرت به لموباً كما مرت بغيره ، راح يسأل الجنرال برنادوت عن هذا الجمال الذي لم يحفل بنظرات القنصل الأول :

— برنادوت ... أتعرف هذه الفاتنة ؟

— أية فاتنة يا مولاي ؟ !

— تلك التي تتحدث إلى أخي لوسيان ...

— أتعني مدام ريكاميه يا صاحب الجلالة ؟ !

وهتف بونابرت في صوت حالم : مدام ريكاميه ... يالها من امرأة ... !

وغادر المكان وفي رأسه ثورة تحتدم ... لقد قرر أن ينالها مهما يكن الثمن ، وأن يخوضها معركة حامية ... ضد امرأة !

ويالها من معركة كانت أسلحتها من أهداب وجفون ... معركة لم يكن يقدر لها أن تطول ، وأن تنتهي بهزيمته ! لقد جرب القائد الشجاع كل سلاح ، واستنفذ كل خطة ، وحارب في كل ميدان ، وحين باء بالخذلان راح يصب نقمته على الجمال النادر ... وابتدأت حياة العذاب ، تلفح بنارها الوجه المشرق ، والثغر الباسم ، والعينين الساحرتين ... وعلى مر السنين ، وتحت وطأة الشجن ، ذبل الشباب النضر ، وسكت الصوت العذب إلا من أنات !

لقد بدأ النضال بين بونابرت ومدام ريكاميه في ذلك اليوم الذي قبض فيه على أبيها ، أعني زوج أمها ، ليحاكم في اليوم التالي بتهمة الخيانة العظمى ... كان الرجل مديراً عاماً للبريد ، وكان من الذين يدينون بالولاء للنظام الملكي ، فاشترك في إيصال بعض المكاتبات للحزب الملكي الذي كان يعمل في الخفاء ضد الحكم القنصلي ... لقد خارت قواها في ذلك اليوم من هول الصدمة ، ومضت تنشد العون عند كل صديق ، لتبعد شبح المقصلة عن الرجل الذي كانت تظنه أباها . ويتوسط لها الجنرال برنادوت ، ويصحبها إلى قصر التويلري لمقابلة القنصل الأول ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها بونابرت مدام ريكاميه ... ويخضع الجبار لسطوة الجمال القاهر ، فأمر بحفظ الدعوى والإفراج عن الرجل ! وخيل إلى الصقر الفرنسي أنه بهذا الصنيع الذي أسداه إلى الحمامة الوديعة ، خيل إليه أنه يستطيع أن يدنيها منه حين يشاء ، وأن يخضعها لرغباته !

وتدور عجلة الزمن ، ويصبح القنصل الأول امبراطوراً تدين له فرنسا وما حولها بالطاعة والولاء . وعلى الرغم من المهام الكثيرة الملقاة على عاتقه ، وما يشغل فكره من أمجاد وأطماع ، فإن صورة مدام ريكاميه ما نتت تداعب أحلامه وأمانيه ... عرض عليها أن تكون وصيفة لزوجه الإمبراطورة فاعتذرت عن قبول هذا الشرف في لطف ولباقة ! كانت خطة محكمة رسمها القائد العظيم لينهي بها المعركة التي طالت ، وكان يهدف من ورائها إلى أن يدني منه مدام ريكاميه ... وحين ألح عليها أن تقبل ما عرضه عليها ، اعتذرت مرة أخرى في عزم وإباء ... كل شيء قد خضع لنابليون إلا مدام ريكاميه ! ومن هنا أعلنها حرباً سافرة لا تبقي ولا تذر ... وتحت ضرباته الرهيبة المتوالية ، هوى الجمال النادر من قمة الثراء إلى حضيض الفاقة ... وفقدت مدام ريكاميه كل صديق ، وانطلقت الأراجيف تنال من سمعتها كل منال ، ولقي كل من ينتسب إليها أعنف ألوان الاضطهاد والتشريد ... هذه صديقتها الكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام دي ستايل يلقي بها بونابرت بعيداً عن أرض الوطن ، ولا يلبث أن يلحق بها صديقها الآخر بنجامان كونستان ! أما مسيو ريكاميه

فقد أمر بونابرت بأن يقطع عنه بنك فرنسا كل معونة مالية ، وأسرع الناس يسحبون ودائعهم من مصرفه ، وحين أوشك على الإفلاس ، لم تجد مدام ريكاميه بداً من أن تتوسل إلى الجنرال مينو حاكم باريس ليشفع لها لدى الإمبراطور ... ويرفض بونابرت ، ويصيح بشماتة صارخاً فى وجه صديقه :

قل لمدام ريكاميه إننى لست مشيئاً لها حتى أنتشلها من مهاويها ... وهكذا تردّى مسيو ريكاميه إلى هوة الفقر والشقاء ، وذاقت معه مدام ريكاميه طعم البؤس والحرمان كما لم يذقه إنسان

وحين فقدت أمها وهى آخر أحبابها وأعز أمانيها ؛ قررت أن تهجر فرنسا أرض العذاب ، لتلحق بصديقتها الوفيـة مدام دى ستايل ... وهناك على شاطئ بحيرة ليمان فى سويسرا ، التقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع !

وفى رحاب صديقتها وعلى مر الأيام استطاعت مدام ريكاميه أن تنسى بعض آلامها وأن تجد لقلبها بعض العزاء ... لقد التقى بها أحد الأمراء البروسيين ، وكان له من جماله وشبابه ونبل محتده ما ألهب عواطفها الخامدة . وحين صارحها بحبه ، تفتح له قلبها المغلق كما تتفتح الزهرة تحت أنداء الفجر ... وراحت تكتب إلى زوجها مسيو ريكاميه ، طالبة إليه أن يطلقها لتتزوج من الرجل الذى أحبها وأحبته . وعندما تلقت رد زوجها من باريس لم تملك إلا أن تبلل سطوره بالدمع ! ومضت تقرأ وهى لا تكاد تتماسك من الأسى واللوعة : « عزيزتى جوليت ... لم أكن أنتظر أن أفقد كل شىء فى دنياى حتى زوجتى الحبيبة ... ذلك الأمل الأخير الذى كان يسطع فى أفق حياتى فينير لى الطريق ... ما أقساك يا جوليت ؟ ... إنك لا ترحمين وحدتى وغربة روحى . أتريدين أن تتخلى عنى لأنى أصبحت فقيراً ؟ ... أنا الذى ضحيت بمالى فى سبيل إسعادك ! ... إن كان ذلك يسعدك يا جوليت ، فلا يسعنى إلا أن أفسح لك الطريق ... وإلا أن أدعو لك الله ... دعاء تباركه الدموع » . وحين فرغت من تلاوة رسالته الحزينة ، تطلعت إلى الأمير أوجست وهى تقول له : يا صديقى ، أرجو أن تغفر لى ... لقد عدت إلى قلبى أسأله ، فوجدت أن زوجى هو الرجل الوحيد الذى أحببته ... لك دموعى ، ووداعاً ! وشدت رحالها مرة أخرى إلى فرنسا ... إلى أرض العذاب ، فما عادت تطيق البقاء فى ذلك المكان الذى لف حبها فى أكفانه .

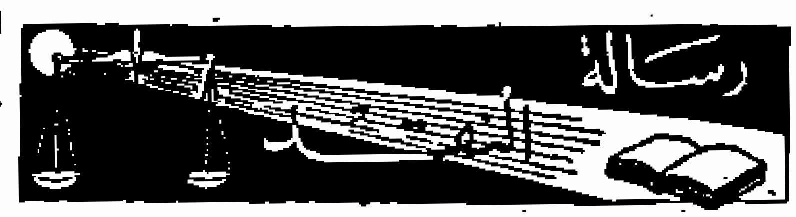
وإلى جانب مسيو ريكاميه راحت فى مأتم الأحلام تقتات على بقايا الذكريات ... ولكن الذكريات تلح على القلب المحزون فيطول ليلها ويطول أرقها فى رحاب الشجن . ويشير عليها الأطباء بتناول بعض المخدرات لتنعم من نفسها الأرق فلا يفلح الدواء ... ويخطر لها ذات يوم أن تضع حداً لهذه الحياة المريرة ، فتتناول زجاجة فيها سائل مميت ، وحين تهم بوضعها على شفتيها يسرع ريكاميه وهو لا يملك نفسه من الفزع ... ويختطفها من بين يديها وهو يصيح صيحة ملتاعة : ابنتى ... ابنتى !. وتطلعت إليه فى ذهول كمن أفاق من حلم مروع ، وأخذت تنظر إلى عينيه كأنما تريد أن تستل من أعماقها سر ما نطق به لسانه ... وحين أوشك ريكاميه أن يفضى إليها بسره الرهيب، دخل أبوها برنار وانتابها شعور خفى لم تدرك له كنها ، شعور فيه حيرة تجلت فى عينيها تساؤلا ولهفة ، ومضت تنقل بصرها بين الرجلين ، وصاحت وهى ترتمى فى أحضان برنار : أبى ... أحبك يا أبى ! أما ريكاميه فكان يغالب دموعه !! وعلى الرغم من كل هذا العذاب ، فقد أمر نابليون بنفيها إلى خارج فرنسا حين علم أن بعض الرسائل تصلها من مدام دى ستايل ، تلك الكاتبة التى أصلته بقلمها ناراً حامية ، هى وصديقها بنجامان كونستان ... ومرة أخرى يمت شطر صديقتها الوفية ، والتقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع !

وحين دالت دولة الجبار ، عادت من جديد إلى أرض العذاب لتقضى بقية أيامها فى أحد الأديرة ... بعيداً من الناس . وفى مكانها هذا المنعزل يقضى إلى جانبها أمير النثر الفرنسى شاتوبريان أكثر أوقاته ، ويضفى عليها من عذوبة روحه ، وسحر حديثه ، وذوب قلبه ، ما يعزيها عن فقد الأحباب ، ولكن أين من يعزيها من فقد الشباب ؟.. لقد أطفأت الأيام بريق عينيها ، وعبثت بنضارة وجهها ، وحكمت على شبابها بالأفول !

وقالت له وهو يعرض عليها أن تكون شريكة حياته : يا صديقى ... إن حبك لى هو آخر واحة ترسل ظلالها فى صحراء حياتى ... ولكن أصوات من سبقونى إلى الله ، تهتف بى أن أظل كما كنت ... مدام ريكاميه !.. ومع ذلك فماذا يجدى من التقاء قلبينا وضم جسمينا ، ونحن نحث الخطى إلى القبر ؟!.

وهكذا عاشت مدام ريكاميه ... وكانت حياة كلها شقاء ... شقاء مقدس !!

أنور المعداوى



موسيقى الشعر

تأليف الدكتور إبراهيم أنيس

بقلم الأستاذ إبراهيم الوائلي

تفضل أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس أستاذ فقه اللغة بكلية دار العلوم فأهدى إلى نسخة من كتابه «موسيقى الشعر» وقد أخرجه أوائل هذا الصيف دارساً الأوزان الشعرية عند العرب ومقدار تعرض الباحثين لها مؤيداً تارة ومخالفاً تارة أخرى. وقد بنى بحثه على قواعد علم الأصوات وخصائص الحروف من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة. وقد استأثر بآراء جديدة في التنافر وعيوب الشعر والأوزان الإضافية الزائدة، وابتداع تفاعيل جديدة.

والكتاب يتألف من أحد عشر فصلا تنوعت إلى مواضيع مختلفة، وسنشير إلى الفصول ذات الأهمية، كما أننا سوف لا نكتم ما نجده من ملاحظات على هذه الفصول.

يتحدث الدكتور في الفصل الأول من الإحساس الأدبي وعلاقته بالفطرة والتجارب المكتسبة، ثم من أثر النغم في حفظ الشعر، وعن أبرز صفات الشعر وهي الموسيقى، وعن التجديد في هذه الموسيقى التي هي عبارة من الوزن والقافية وينعى على الشعراء المحدثين عدم تجديدهم في الأوزان ويعزو ذلك إلى البطء في تطور الأوزان وأن هذا البطء طبيعي «لأن الناس عادة لا يقبلون الطفرة في تطور موسيقاهم أو أوزان شعرهم» ثم يضيف إلى هذا إهمال الإنشاد في عصرنا الحديث، وهذا الإهمال «أفقدنا إلى حد كبير تذوق الموسيقى الشعرية». هذا رأى سديد، ولكن لماذا لا نضيف إليه التزام شعر المناسبات: من مدح ورثاء وغيرهما من الأوزان التي لا تزال آخذة بتلابيب كثير من الشعراء؟. وآية ذلك أن الشعراء الذين تحرروا من كلاسيكية المناسبات أخذوا يجددون في أوزانهم وقوافيهم كما عند المهجريين واللبنانيين وبعض العراقيين. وقد أشار الدكتور إلى هذا التجديد عند المهجريين وذكر لهم بعض شواهد، ولكنه لا يريد أن يبقى ذلك مقصوراً عليهم بل يجب أن يشيع في البيئات العربية.

وفي الفصل الثاني يتحدث عن «الجرس في اللفظ الشعري» وأهم ما فيه تعرضه للتنافر وتعريف علماء البلاغة له وهو يتفق مع القائلين بأن التنافر إنما يكون إذا تقاربت الحروف في مخارجها، ولكنه يشترط لذلك ألا يفصل بين الحرفين حركة من الحركات لأن الحركة صوت كسائر الأصوات الأخر، وعلى هذه القاعدة يجب أن تنظر في الشواهد التي ساقها البلاغيون للتنافر.

ثم يتحدث عن طبيعة الأصوات وصلتها بموسيقى الشعر، فالأصوات المهموسة وأصوات الأطباق وبعض أصوات الحلق لا تستسيغها موسيقى الشعر كما تستسيغ الأصوات المجهورة، والشديدة أسهل من الرخوة فعدم استحسان كلمة «الطلخم» يرجع إلى الطاء والخاء لأن الأول من أصوات الأطباق والثانية من أصوات الحلق وكلاهما مهموسان.

وفي هذا الفصل يتحدث عن «جرس الألفاظ في البديع» ويناقش عبد القاهر الجرجاني مناقشة عنيفة لأن الجرجاني لا يهتم بجرس الألفاظ بل يعزو الجمال في التعبير — إذا كان هناك جمال — إلى المعنى وحده.

يقول الدكتور في صفحة ٤٤: (ولا شك أن عبد القاهر قد بالغ في هذا مبالغة غير محمودة، فجمال الجرس أمر معترف به بين أهل الأدب ونقاده ولا معنى لإنكاره).

ثم يقول في الصحيفة نفسها: (وتظهر مبالغة الجرجاني حين نتذكر أن نقاد الأدب، قديمهم وحديثهم، قد أجمعوا على أمر واحد وهو وجوب إخضاع اللفظ للمعنى). وإلى هنا يبدو شيء من التناقض بين التعبيرين، ويظهر أن الدكتور أراد أن يقول: إنهم يجمعون على إخضاع المعنى للفظ حتى يتناسب هذا مع إنكاره لرأى الجرجاني، وإلا فأية مبالغة تظهر عند الجرجاني وهو الذي لا يقيم لجرس الألفاظ وزناً: «فإنا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ويستجيد نثراً ثم يجعل الثناء

عليه من حيث اللفظ ... فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوى بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده[١] » . ويقول معلقاً على الجناس والسجع : (وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساقه إليك [٢]) . والجرجانى يستحسن سجع الجاحظ لأنه خال من التكلف والصنعة وزيف كثيراً من التجنيس عند أبى تمام ومن نحا نحوه لأنه مصطنع متكلف ، ويسوق لذلك أمثلة كثيرة فى أسرار البلاغة للحسن والقبيح .

ثم إننا لا نريد أن نزركش الثياب على جسم ناحل متداعى الأوصال كما أننا لا نريد من الزهرة أن تبتسم وهى بين الأشواك والصخور ، ولعل الجرجانى لا يند من هذا الرأى .

أما الفصل الثالث فانه يبحث فى الأوزان وأنواعها وبحث القدماء لها وفيه نقد للقدماء على إغراقهم فى خصائص الأوزان ومصطلحاتها وإتيانهم بأوزان لم يرد عليها من الشعر العربى شىء وإذا ورد فلا يكاد يتجاوز البيت أو البيتين ، ولعل أكثرها موضوع . كذلك ناقش القدماء فى بعض الأوزان التى افترضوا لها أصولاً ثم سقطت منها بعض التفاعيل مع أنه لم يرد لهذا الأصل الذى افترضوه شاهد من الشعر العربى . ونحن مع الدكتور فى مناقشته لهذا التمحل الذى شغل العروضيون به أنفسهم فلا داعى للافتراض لأن الدوائر العروضية لم توضع اعتباطاً وإنما وضعت وفق ما جاء من الشعر العربى . وفى أثناء بحثه تعرض لبحر المقتضب بشىء من الحذر لأنه نادر الشواهد وذكر قطعة للحسين بن الضحاك شاهداً عليه وأولها :

حامل بحبيبه مطرق من التيه

ومنها :

لا وحق ما أنا فيه من عطف أرجيه

وآخرها :

تائه تزهده فى رفيق فيه

فقال : إننا مضطرون إلى منع كلمة « عطف » من الصرف حتى يستقيم الوزن . والحقيقة أن الوزن لا يستقيم حتى مع هذا الاضطرار بل يكون الشطر الثانى من الهزج على كلتا القراءتين ، ويخيل إلىّ أن البيت مصحف ولا يستقيم إلا إذا قلنا فيه هكذا :

لا وحق ما أنا فيه فلا أرجيه

وإن اختلف المعنى وقال : إن الشطر الأخير من القطعة لا يستقيم له وزن ، والصحيح أن الوزن مستقيم بتشديد « فىّ » وهذا ما يقتضيه المعنى كذلك .

وعالج فى هذا الفصل نسبة شيوع الأوزان فى الشعر مقدماً بعضها على بعض حسب هذا الشيوع وابتدأ بالطويل وذكر ما فيه من التفاعيل الشاذة التى تأباها الأذن الموسيقية ونعى باللوم على العروضيين الذين أقروها لمثل أو مثلين قد تكون من أخطاء الرواة أو من التصحيف . ومن هذه التفاعيل ورود « مفاعيل » و « مفاعل » حشواً فى البيت ومن الأول قول امرىء القيس :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ونحن نوافق الدكتور على هذا ونعتقد أن البيت مصحف إذ تكاد تكون أمثلته نادرة جداً وقد يكون هو وحده الذى روى بهذه الصورة ولذلك نروى هكذا :

الارب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

فراراً من هذا الشذوذ . ومن الثانى قول امرىء القيس أيضاً :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فيا عجباً من رحلها المتحمل

وقد افترض الدكتور قراءة : « عقرنا » فراراً من الزحاف . كما افترض لبعض الأبيات التى ساقها شاهداً لهذا النوع قراءة تتفق مع الوزن الصحيح ، وإلى هنا لا نستطيع أن نوافق الدكتور على تخطئة الرواة أو التصحيف ؛ لأن هذا النوع شائع عند العرب فى الجاهلية والإسلام وفى العصر العباسى وشواهده كثيرة فى الشعر الجاهلى ، ويكثر عند الأخطل فى صدر الإسلام ومنه قوله :

لجــاء بها كأنما فى إنائه بها الكوكب المريخ تصفو وتزبد

وعند البحترى فى العصر العباسى ومنه قوله :

جديد الشباب كره افعاله وبعض الرجال كره بسنيه

(١) أسرار البلاغة ص ٩ مطبعة الاستقامة .

(٢) أسرار ص ١٥

ومثل هذا كثير لا يتسع المقام لذكره . ولعل مرجع ذلك إلى طبيعة الغناء في العصر الجاهلي فإن معظم الشعراء كانوا يترنمون بأشعارهم حين ينشدون وهذا الإنشاد قد يطيل المقاطع والحركات فلا يحس الشاعر بنبوة أو شذوذ . وإطالة الحركة شائعة في الشعر قال لبيد :

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

فوزن البيت يقتضي إطالة الكسرة في هاء « إليه » وعلى هذا فلا يبعد أن امرأ القيس كان ينشد بيته هكذا :

ويوم عقرت(و) للعذارى مطيتي فيا عجباً من رحلها المتحمل

أما شيوعه فيا بعد العصر الجاهلي فلأن الشعراء وجدوه شائعاً فنسجوا عليه ! على أننا مع الدكتور في أن هذا النوع من التفاعيل يجب الابتعاد عنه .

وفي استعراضه لبحر البسيط ذكر شواهد لمجيء « متفعلن » بدل « مستفعلن » في حشو البيت . ومن هذه الشواهد بيت للنابغة وهو :

سرآته ، ماخلا (لباته) ، لهق وفي القوائم مثل الوشم بالقار

وآخر لأعشى باهلة وهو :

طاوي المصير على (العزاء) منجرد بالقوم ليلة ، لا ماء ولا شجر

وقد وضعنا كلتي (لباته) و (العزاء) بين قوسين إذ فيهما يرد احتمال الشذوذ . أما القراءة الصحيحة فإنها تجعل البيتين مستقيمي الوزن ، فصحة الكلمة الأولى : (لبّاته) بباء مشددة وتاء جمع لبّة وهي موضع القلادة . وصحة الكلمة الثانية (العزّاء) بتشديد الزاء وهي السنة الشديدة وهذا ما يقتضيه المعنى أيضاً .

تعرض الدكتور في ص ٩٤ لبحر المديد وذكر أنه وزن قديم جداً هجره الشعراء وليس في القدماء الجاهليين من نظم عليه ما يستحق الذكر إلا بضعة أبيات نسبت للمهلهل بن ربيعة .

ولا أدري هل يوافق الدكتور على رواية أبي تمام فقد روى هذا قصيدة ذات ٢٦ بيتاً لتأبط شراً وأولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل

واصل رأي الدكتور في بحر المديد أرجع لأن الأصمعي نفسه شك في أن تكون هذه القصيدة جاهلية لبعض المعاني والتعابير التي وردت فيها ؟ وقد أشار إلى هذا التبريزي في شرحه للحماسة وبيّن الآراء التي قيلت فيها .

وقد جمع الدكتور بين الهزج ومجزوء الوافر في بحث واحد وسرُّ هذا الجمع كون البحرين يلتقيان في تفاعيلهما ويفترقان في بعض التغييرات . فالهزج يأتي فيه « مفاعيل » أحياناً بدل « مفاعيلن » ولا يجوز ذلك في مجزوء الوافر . كما أن هذا الأخير تأتي فيه « مفاعلتن » ولا تأتي في الهزج . وقول الدكتور : (فإذا جاءت الأبيات مكونة من مكرر مفاعلتن وحدها فذلك هو مجزوء الوفر) قول صحيح لا غبار عليه . أما قوله : (وإذا رويت من مكرر « مفاعيلن » وحدها فهنا يلتبس الأمر بين مجزوء الوافر والهزج) فهذا ما لا نستطيع أن نؤيده بل نقول : إنه الهزج بصورته الأصلية القديمة ، وكان على الدكتور أن يبرئ الهزج من « مفاعلتن » ليستريح من كل هذا العناء ، والذي جعله يمزج بين البحرين هو هذا الخلط العجيب الذي درج عليه بعض المحدثين فلم يفرقوا بين الهزج ومجزوء الوافر بل تأتي القطعة وهي خليط من هذا وذاك . فالقطعة التي نقلها الدكتور من ديوان (اللاح التائه) شاهداً على الهزج لا يقرها الوزن الصحيح لأنه يقول فيها :

هنالك على ربى الوادي لنا مهد من العشب

فإن الشطر الأول من مجزوء الوافر حتما لمجيء « مفاعلتن » فيه

وقال : (ويظهر أن الهزج تطور لمجزوء الوافر جاءت به عصور الغناء أيام العباسيين ولم يكن معروفاً أيام الجاهليين) وقد بنى رأيه هذا على ندرة الشواهد وعدم اعتماده على الرواة في معظم الأحيان . ولو أنه اعتمد على رواية أبي تمام لما أنكر وجود الهزج فقد روى أبو تمام في الجزء الأول من الحماسة قطعة نسبها إلى الفند الزماني من شعراء بكر بن وائل ومنها :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

والدليل على أنها من الهزج قوله فيها :

ولم يبق سوى الأعداء دنّاهم كما دانوا

وقوله :

بطمن كفم الزق غذا وازق ملآن

فقد وردت « مفاعيل » فى البيتين الأخيرين وهى من خصائص المزج .

هناك شىء يجب أن أشير إليه بإيجاز وهو التفاعيل التى استنبطها الدكتور لتبنى منها الأوزان الشائعة بعد ترك الأوزان التى لم يرد عليها شاهد صحيح ، وهذه التفاعيل ثلاث : فعولن ، فاعلن ، مستفعلن . ثم يضاف إلى كل تفعيلة مقطع ساكن فيتولد ثلاث تفاعيل أخر : وهى فعولان ، فاعلان ، مستفعلان . ومن هذه التفاعيل الست يمكن بناء عشرة أبحر ماعدا الكامل والوافر والمزج . وعذر الدكتور فى استثناء هذه الثلاثة أنها قد تشتمل على مقطعين قصيرين متواليين فيتعذر بناؤها . وكان على الدكتور أن يضم المزج إلى هذه البحور العشرة ويبنيه من « فعولان » مكررة بعد أن قلنا : إن المزج لا تأتى فيه مفاعلتن ، أما الكامل والوافر فإنه يمكن أن تجرى فيهما على قواعد الصرفيين . ونقول : إن الحرف المتحرك لا ينافى أن يقابله الساكن فى التفعيلة لأن الصرفيين كثيراً ما يقابلون الساكن فى الكلمة بالمتحرك فى الميزان الصرفى ؛ فيقولون : اشتد على وزن افتعل . وإن كان فى هذا مجال للبحث .

وفى الفصل الرابع تعرض لتحليل المستشرقين للأوزان واتخاذ نظام المقاطع بدل التفاعيل . ولعل هذا يحتاج إلى دراسة شاملة ؛ لأن نظام المقاطع مبنى على دراسة الأصوات اللغوية وهذه لا تزال فى بداية مراحلها .

وفى الفصل الخامس تحدث عن غناء الشعر وإنشاده وعلاقة هذا بجودة الشعر وموسيقاه ونبه على ضرورة العناية بالإنشاد فى المدارس لتؤدى رسالة الشعر غير منقوصة . ولدى الحقيقة أن إهمال الإنشاد فى العصر الحديث قد أفقد الشعر ميزة كبرى لا تقل من العاطفة والتعبير .

واختص السابع بدراسة أوزان المولدين كالمستطيل والممتد والمتوفر وغيرها وشيوع الأزجال المبنية على نظام البحور القديمة وقد ذكر لهذا عدة شواهد من مقدمة ابن خلدون ومن الأزجال المصرية الحديثة وحاول جهد الطاقة بناءها على البحور الشائعة .

والحق أن الأزجال فى البلاد العربية كلها أو معظمها موزون كالشعر الفصيح ولكن الوزن يختلف باختلاف اللهجات والأغانى فى الشعوب العربية ؛ لأن الشقة قد أصبحت بعيدة بين البيئات العربية فى تأدية الكلمات العامية .

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أثنى على المؤلف الجليل لما بذله من عناية وجهد فى هذا الكتاب فجاء تحفة رائعة تغنى عما كتبه العروضيون وتكفى من يريد درس العروض دراسة صحيحة يستطيع بواسطتها أن يعرف النسج الشعرى دون مشقة أو عناء ويتجنب العيوب الشعرية من علل وزحافات وغيرها .

ابراهيم الوائلى